سُؤَالاتُ ابْنِ أبي حاتم العَوْنِـيِّ

عن فُحُولةِ الشُّعَـرَاءِ الـمُحْدَثِينَ

(وهي خواطر أدبية ، كلما تيسر لي كتابة سؤال أضفته إليها)

المقدمة

الحمد لله منزل القرآن ، المعجز في البيان، والصلاة والسلام على رسوله ومصطفاه من ولد عدنان ، أفصح من نطق بالضاد وأبان ، وعلى أزواجه وذريته المخصوصين بأصدق لسان ، ما تعاقب الحدثان .

أما بعد :

فقد كنت من يوم أن قرأت كتاب (فحولة الشعراء) للإمام اللغوي أبي حاتم السجستاني (ت٢٤٨هـ) ، وأنا معجب بها ؛ لأنها بأجوبة الأصمعي عليها تعطي خلاصة علم إمام وذائقته الأدبية الراقية في منازل الشعراء ؛ حيث إن هذا الكتاب عبارة عن أسئلة أدبية نقدية عن مكانة الشعراء ، وجهها لإمام الرواية اللغوية والشعرية : الأصمعي (ت٢١٦هـ) .

ولذلك فهي سؤالات أدبية في غاية النفاسة والطرافة ، ولها شبه كبير بالسؤالات الحديثية عن الرواة جرحا وتعديلا ؛ والأصمعي حقا هو في إمامته في اللغة والأدب كيحيى بن معين في علم الحديث !

وهذا الشبه هو مما زاد من إعجابي بهذا الكتاب : ذلك أني مع حبي لعلوم السنة النبوية عموما ، فقد أحببتُ منها خاصة وجها من وجوه التصنيف فيها ، وهو : السؤالات الحديثية ، كسؤالات الدارمي وابن الجنيد وابن محرز وغيرهم لابن معين ، وسؤالات أبي داود لأحمد، وسؤالات محمد بن عثمان ابن أبي شيبة لعلي بن المديني .. ونحوها ، وهي أسئلة في علل الحديث والجرح والتعديل للرواة . وفي ظني أن من أسباب هذا الحب والإعجاب بهذا الوجه من وجوه التصنيف في علوم السنة أنها قائمة على هذا الأسلوب : أسلوبِ

السؤال والجواب ، وهو أسلوبٌ مثيرٌ في التصنيف حقيقةً ، يُشعرك بجلالة علم المجيب وهيبة موضعه من العلم، وأن كلمةً منه تَزِنُ أبحاثَ عُمر ودرسَ الدهر ، وهي كذلك حقًّا ، ولذلك اهتبل السائلون سؤالَ الأئمة ، واحتفلوا بتقييدِ جواباتهم المختصرة المحرّرة في تلك الكتب . وهذا الشعور شعورٌ جامحٌ في هذه الكتب وأمثالها في تراثنا ، حتى إنه ليتجاوز شعورَ كاتبها عندما كتبها إلى شعور قارئها ، مهما امتدّ الدهر ، فكأن قارئها بقراءة السؤال والجواب فيها: قد اخترق الزمن ، وعَبَرَ العصور ، وجلس هناك بين يدي ابن معين وأحمد ابن حنبل وعلي ابن المديني .

ثم جاء – بعد ذلك – كتاب (فحولة الشعراء) مشابها (السؤالات الحديثية) غاية المشابهة ، مشعرا بالشعور نفسه تجاهه ، إجلالا وهيبةً ، حتى إنك إذا ما قرأت كتاب (فحولة الشعراء) قد حضرتَ درس إمام من أكابر أئمة اللغو والأدب : كالأصمعي ، وجلستَ بين يدي علمه وإمامته !

فإن رجعنا إلى كتاب (فحولة الشعراء) فقد بين الأصمعي فيه مراده بالفحولة ، حيث سأله أبو حاتم : «ما معنى الفحل ؟ قال : أن له مزية على غيره ، كمزية الفحل على الحِقاق» ، يعني : على إناث الإبل التي بلغت سن طلب الضِّراب .

وهذا الوصف (الفحولة) لتمييز منازل الشعراء كان وصفا شائعا ، ومنه كتاب (طبقات فحول الشعراء) لمحمد بن سلام الجمحي (ت٢٣٢هـ) .

ومن لطائف الأجوبة في هذا الكتاب :

سأل أبو حاتم قائلا : «فعدي بن زيد أفحل هو ؟ قال : ليس بفحل ولا أنثى» !

وهذا جواب قاس ، وسببه أن عدي بن زيد عاش في الحيرة ، وخالط الفرس ، فلانَ شعره ، حتى إنه الشاعر الجاهلي الوحيد الذي قيل إن شعره ليس بحجة ، إما لكثرة المنحول

فيه ، وإما لثقل لسانه بمخالطته الأعجام !!

فقال : «فعروة بن الورد ؟ قال : شاعر كريم ، وليس بفحل» .

وهو في هذا الجواب يفصح عن نفس تأبى أن تُـجَرِّدَ الكِرام من منقبةٍ عظيمة ، تفوق منقبة فحولة الشعر .

فقال : «فأبو دُؤاد ؟ قال : صالح ، ولم يقل : إنه فحل» .

هذه تذكرني بقول نقاد المحدّثين من أئمة الجرح والتعديل : صالح وليس بالقوي !

وقال : «فكعب بن جميل : أظنه من الفحول ، ولا أستيقنه» .

وهو جواب يدل على ورع وتثبت ، وعلى ثقة في النفس .

قال : «وسألته عن الأغلب ، أفحل هو من الرُّجّاز ؟ فقال : ليس بفحل ولا مفلح . وقال: أعياني شعره . وقال مرة : ما أروي للأغلب إلا اثنتين ونصفا . قلت : كيف قلت : ونصفا ؟! قال : أعرف له اثنتين ، وكنت أروي نصفا من التي على القاف ، فطَوّلُوها . ثم قال : كان وَلَدُه يزيدون في شعره ، حتى أفسدوه» .

فقد ذكرني هذا بطريقة أئمة الجرح والتعديل عندما ذكروا من أفسده وَرّاقُه (كسفيان بن وكيع) .

قال أبو حاتم : «قال الأصمعي : سمعت أبا سفيان ابن العلاء يقول : قلت لرُؤْبة : كيف رجز أبي النجم عندك ؟ قال : كلمته التي عليها لعنة الله (لأنه استجادها) :

الحمد لله الوَهوبِ الـمُجْزِل» .

وهذا الثناء على القصيدة بلعنها !!

وهكذا .. فقد امتلأ الكتاب بهذا النمط من الأسئلة والأجوبة ، مما يُعدّ من أقدم النقد الأدبي في تراثنا .

فلما وقفتُ عليه ، أحببتُ أن أكتب ذيلا عليه ، يخص الشعراء الـمُحْدَثين والمعاصرين:

الحلقة الأولى من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين :

حدثني ابن أبي حاتم العوني ، قال : سألت أعرابيا سكن باديةَ رأسي ، يقال له عقلي ، وكان يتذوق الشعر كما يتذوق الطاهي الهبهبي الطعامَ (والطاهي الهبهبي : هو الطباخ الماهر) .

وأما (رأسي) التي يسكنها عقلي : فهي قرية صغيرة الحجم في أعلى أقاليم الجسد ، ونازع في ذلك بعض الرحالة في النصوص ، فقالوا : بل عقلي يسكن القلب ، ولم يسكن رأسي قط ! لكني لقيت عقلي في رأسي ، وربما هبط إلى قلبي ، كما أخبرني بذلك ؛ إذا ما استبد به الحب أو الشوق أو الحزن ! ولكني لم ألق الشيخ عقلي في قلبي قط !!

فسألت عقلي عن شعراء الزمان ، فأجابني جواب أعرابي لا يحسن من العلوم المكتسبة شيئًا ، لكنه أجابني بطبعه البدوي وسليقته العربية وتذوقه الخاص ، فرأيت أن أدون أجوبته ، فقد لا تخلو من فائدة أو طرافة .

على أنه كان شحيح الجواب ، غليظ الاستجابة ، كأنما يستحلب الكلام من سَمِّ الخِيَاط!

وكنت لا بد أن أتلطف في سؤاله ، بلا إطناب ولا تقصير ، فهو قصير الحلم ، طويل الغضب ، بطيئ الرضا ، سريع الملل .

فكنت أبدأ بنحو قولي : ما يقول سيدي وقائدي ودليلي عين هامة الأبدان رفيع المكان المتصرف في الجوارح والأركان أستاذي وشيخي : عقلي !

فما أكثر ما كان يقاطعني بنحو قوله : سل ، سلّ الله لسانك ! أو : قل ، قلقل الله أضراسك ، أو : فُه فهاهتك قطع الله لهاتك .

ثم يستجيب للسؤال ، فأغتنم الفرصة ، كاغتنام اللص غفلة الحارس الفظ الحريص !

فكان أول ما سألت عقلي ، أن قلت له : كيف ترى فحولة الشعر في زماننا ، بعد فحولة الشعراء الذين كتب فيهم ابن سلام الجمحي وأبو حاتم السجستاني ؟

فقال لي : هل تسأل عن أحمد شوقي وأمثاله ، وقليل ما هم ؟!

فقلت : أجل .

فقال : هات ما عندك ؟

فقلت : بم كان شوقي عندك من الفحول ؟

فقال : مثله لا يقال عنه : بم كان من الفحول ، وإنما يقال عنه : في أي شعره نزل عن الفحول ؟

أتراه حين يتغزل ، فيجمع ما تفرق من المعاني عند غيره ؟!

خدعوها بقولهم حسناءُ *** والغواني يغرهنّ الثناءُ

ففي هذا البيت جمع ما قال غيره في شطر بيت : « والغواني يغرهنّ الثناءُ» .

فقلت لعقلي : لكن ألم يكن قوله « خدعوها بقولهم حسناءُ» ما يوهم أنها قبيحة ليست بحسناء ، وإنما خدعوها بالثناء عليها بما ليس فيها ؟

فقال : اسكت ! ما أثقل فهمك !! إنما يقصد أنهم خدعوها بدعوى عشقهم لها ، بالثناء على حسنها ، إذ هذا هو أول خطوات إغواء النساء .

ثم أتم القصيدة منشدا مترنما وشارحا مواطن الفحولة فيها ، فقال :

أتراها تناست اسميَ لما *** كثرت في غرامها الأسماءُ

ومع أنه هنا اعتذر لها بأحسن الأعذار للنسيان ، وهو كثرة أسماء عشاقها ، لكنه أوحى إليك بحقيقة منزلته عندها (في ظنه) ، حيث إنها تتناسى ، ولم تنسَ !

إن رأتني تميل عني كأنْ لم *** تكن بيني وبينها أشياءُ

فما أجمل الكناية عما كان بينه وبينها بـ(أشياء) ، فلا كتم أو أنكر ، ولا هو أفصح أو فضح ، ولا تبجّح واستكثر ولا أخفى وستر، كما أنه ما قلل ولا خفّف ولا بالغ ولا هوّل ؛

فهي (أشياء) ، وليست شيئا واحدا ،و وهي أشياء عظيمة ، حيث نكّر ونوّن .

نظرةٌ ، فابتسامة ، فسلامٌ *** فكلامٌ ، فموعدٌ ، فلقاءُ

وما زال الوُعّاظ يجدون في هذا البيت أحسن وصف لخطوات الشيطان في الإغواء ، وهي كذلك !

ثم يقول شوقي :

يوم كنا (ولا تسل : كيف كنا) *** نتهادى من الهوى ما نشاء

كأنه يوم كنى عن علاقته بها بـ(أشياء) ، خشي من المبالغة في تصور طهر هذه العلاقة ، وكأنها بلغت في طهرها حد الحرمان والهجران ؟! فأراد أن يقول لنا : لم يصل طهر حبنا هذا الحد !! فلا تسل عما كنا عليه ! فقد كنا نتهادى ما نشاء من فنون الحب ، وفي قوله (نتهادى) ما يبين أنها كانت تبادله الغرام كما كان يبادلها إياه .. فحق له أن لا يصدق أنها نسيته في زحمة أسماء العشاق ؛ إذ لم يكن مجرد اسم عابر لعاشق من عشاقها !

ثم عاد ليؤكد على عفاف هذه العلاقة ، ليقول :

وعلينا من العفاف رقيبٌ *** تعبت في مِراسه الأهواء

وتأمل قوله عن محاولات الإغواء الفاشلة : تعبت في مِراسه الأهواء

وجاذبتني ثوبيَ العصيَّ وقالت : *** أنتم الناس ، أيها الشعراء

فاتقوا الله في قلوب العذارى *** فالعذارى قلوبهن هواء

فانظر سبيكة هذا الشعر ، وكيف ختمه بشرح فاتحته ، فهنا يقول عن إغواء الشعراء :

فالعذارى قلوبهن هواءُ

وهناك كان قد قال :

والغواني يغرهنّ الثناءُ

فهو يلومها على التغرير بها الذي مارسه المثنون عليها به ، وهي تخشاه أن يخدعها بأشعار غزله فيها !

فأبان أنها حذرة من الاغترار منه ، ولكنها سمحت لنفسها بالانخداع لغيره ! أو هكذا أرادت غيرته عليها أن تصف حالهما !!

فقلت للشيخ : لم اخترت من غزل شوقي ، وهو في وطنياته وإسلاميته أشعر منه في غزله ؟!

فقال : فمن كان فحلا في الأقل ، فكيف بالأكثر الأشهر السائر بين الناس ؟!

فقلت : وماذا من غزله أَدْخَلَه عندك في الفحول غير ما سبق ؟

قال : قوله :

صوني جمالك عنا ؛ إننا بشرٌ *** من التراب ، وهذا الحسن رُوحاني

أو فابتغي فلكا تأوينه ملَكًا *** لم يتّخذ شَرَكًا في العالم الفاني

والبيت الثاني من معجز البشر ؛ فلو جئت تشرحه بإيجاز لجاءت كل كلمتين منه سطرا أو سطرين ! فهي معان لا توجزها إلا أقصوصة ، وهي عنده بيتٌ واحد !!

(الحلقة الثانية من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين)

فسألته عن إسماعيل صبري ؟

فقال : عن أيهما تسأل ؟ أعن الكبير ، أم الصغير ؟ أعن الباشا أم أبي أميمة ؟

فقلت : عن الاثنين ؟

فقال : أما الأشهر فهو الباشا ، ويعدونه من شعراء مدرسة الإحياء ، وتوفي سنة ١٣٤١هـ .

قلت : وما مدرسة الإحياء ؟

قال : هم الشعراء الـمُحْدَثُون الذين تركوا غُلُوَّ العناية باللفظ والمحسنات البديعية على حساب المعاني والأحاسيس ، وحاولوا العودة بالشعر إلى النظر في المعنى ، والاهتمام بالأحاسيس ، وإلى إعادة روح الشعر إليه ، بعد غرقه في الألفاظ ، وبعد موت المشاعر فيه . ولذلك سُمّوا بـ(شعراء الإحياء) .

قلت : فإسماعيل صبري باشا عندك من الفحول ؟

فقال : لا ، ليس فحلا ، وإن رغمت أنوف .

قلت : لكنهم يعظمون قصيدته التي يقول فيها :

لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني *** إذا ونى يوم تحصيل العلا واني

فقال : يا بني ، إنما تسألني ، وقد قرأت هذه القصيدة ، فلم أجد فيها فضلا ؛ إلا إشادتها بفرعون وبنائه الأهرامات !

ثم قال : وأحسن منها قوله

يا رب أين تُرى تُقام جهنم *** للظالمين غدًا وللأشرار

لم يُبق عفوُك في السموات العلا *** والأرضِ شبرًا خاليًا للنار

يا رب أهّلني لفضلك واكفني *** شطط العقول وفتنة الأفكار

ومُرِ الوجود يَشِفُّ عنك لكي أرى *** غضب اللطيف ورحمة الجبار

يا عالِمَ الأسرار حسبي محنة *** علمي بأنك عالِمُ الأسرار

أخلِقْ برحمتك التي تسع الورى *** أن لا تضيق بأعظم الأوزار

إني لتعجبني الغداة صحيفتي *** ملآى من الآثام والأوزار

حاشا لمثلي أن يُدِلَّ بطاعةٍ *** فيها مسجّلةٍ على الغفار

أو أن يَعُدّ وثيقةً ينجو بها *** يوم القيامة من يد القهار

ليس الكريم بطالبٍ عن صُنعه *** أجرًا ، وليس العفو صفقةَ شاري

ففي هذه القصيدة معان لطيفة ، لكنها لا تبلغ به الفحول .

قلت : فإسماعيل صبري أبو أميمة (ت١٣٧٢هـ)؟

قال : ليس من الفحول ، لا يختلفون فيه !

قلت : قد غنى له مشاهير المغنين في زمنه ؟

فقال : ومتى كان هذا مقياس الفحل يا فسل !!

الحلقة الثالثة من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين :

قلت : فخير الدين الزركلي صاحب (الأعلام) ؟

فقال : لو كان له مثل قصيدته الوطنية النونية وقصيدته الرائية سواهما قصيدتان أخريان، لكان فحلا .

قلت : عُدَّ لي عيون قصيدته النونية ؟

فقال قوله :

العين بعد فراقها الوطنا *** لا ساكنا ألفت ولا سكنا

ريانة بالدمع أقلقها *** أن لا تُـحِسَّ كرًى ولا وسنا

كانت ترى في كل سانحةٍ *** حُسْنا ، وباتت لا ترى حَسَنا

والقلب لولا أَنّـةٌ صَعَدَتْ *** أنكرتُه وشككتُ فيه أنا

ليت الذين أحبهم علموا *** وهمُ هنالك ما لقيتُ هنا

ما كنت أحسبني مفارقَهم *** حتى تفارقَ روحيَ البدنا

***

ياموطنا عبث الزمان به *** من ذا الذي أغرى بك الزمنا

قد كان لي بك عن سواك غنى *** لا كان لي بسواك عنك غنى

إلى أن يقول خاتما قصيدته :

إن الغريب معذب أبدا *** إن حل لم ينعم وإن ظعنا

لو مثَّلوا لي موطني وثنًا *** لهممتُ أعبد ذلك الوثنا

قال : وبيته الأخير ليس فيه من الحسن إلا عاطفته المجنونة !

قلت : فما رائيته ؟

قال التي يقول فيها ، وهي دون النونية :

الأهل أهلي والديار دياري *** وشعار وادي النيرَبَين شعاري

ما كان من أَلمٍ بِجِلّقَ نازلٍ *** واري الزنادِ ، فزنده بي واري

إن الدم المهراق في جنباتها *** لدمي ، وإن شفارها لشفاري

دمعي لما مُنيت به جارٍ هنا *** ودمي هناك على ثراها جاري

***

يا وامضَ البرق اطمئنَّ وناجني *** إن كنتَ مُطَّلِعًا على الأسرار

ماذا هناك ؟ فإن صوتا راعني *** والصوت فيه جفوة الإذعار

الحلقة الرابعة من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين :

فسألته : عن محمود سامي البارودي ؟

فقال : هو مؤسس مدرسة الإحياء ، وله فضل السبق ، فحلُ الألفاظ جَزْلهُا ، لكنه يكرر المعاني ، قليل الابتكار ، فهو فحل مرة واحدة ويقلد فحول الشعراء مائة مرة .

ومن ابتكاراته قوله :

إذا استُلّ منهم سيدٌ غرب سيفه *** تفزعت الأفلاكُ والتفت الدهرُ

فقلت له : فحافظ إبراهيم ؟

قال : فحل ، ولا شك .

قلت : فمطران خليل مطران ؟

فضحك وقال : ذهب بفحولته (لو كان فحلا) قول الشيخ علي الطنطاوي (رحمة الله عليه) عنه بين شوقي وحافظ : إنه حمار بين جوادين !

قلت : فجبران خليل جبران ؟

فقال : ويحك ! وما للإناث تُذكر مع الفحول ؟!

قلت : وقصيدة المواكب له ؟

فقال : يا بني ، أدباء العصر قليلٌ ورعهم ، إن لم يكن قليل أدبهم (علمهم بالأدب) :

- فالمصري يمدح الشاعر المصري فوق قدره ، والشاميُّ الشاميَّ ، ولأدباء لبنان تعصبٌ لأدباء المهاجر اللبنانيين ، واستغلوا منبر الطباعة الذي تميزوا به في تسويق نقدهم . وهذا لا يعني التعميم ، ففي كل أهل إنصاف ، لكنهم قليل .
- والصديق يمدح الصديق من الشعراء ، ويغضي من خصومه .

- وللمتدينين من المسلمين والنصارى سماجة التعصب الديني مدحا وذما للشعراء :
أما النصارى : فعليك بـ(شعراء النصرانية) للويس شيخو مثالا ، لترى التعصب كيف يسخر من صاحبه إذا ولج ساحة العلم . وأما الإسلاميون : فاخترعوا شيئًا سموه (الأدب الإسلامي) ، فتزمتوا سماحةَ الإسلام ، وجاؤوا إلى أفسح ما في الإسلام وهو الموقف من الأدب فضيقوه ، ومدحوا الخطب المنظومة باسم الشعر الإسلامي ، وأرادوا رفع ما خفضه كل ذوق سليم!

أما ما سألت عنه من قصيدة المواكب لجبران خليل جبران فهي من أبعد الشعر عن الفحولة ، وما يُستحسن منها لا يعجز عنه أحد !

ثم قال الشيخ : ومما يستحسنونه من قصيدة المواكب قوله فيها :

هل تَـحَمَّمْتَ بعطرٍ *** وتَنَشَّفْتَ بنورْ

وشربتَ الفجر خمرًا *** في كؤوس من أثير

وحتى تعلم تفاهة هذا النظم ، سل نفسك : ألم يمكنك أن تقول أنت هذين البيتين بلفظ آخر ، فتقول :

هل تطيبتَ بنور *** وتنشفت بطيب

وجعلت الفجر خمرا *** في قنانيّ المغيب

وستجد عندئذ من يتغنى بسحر هذه الرمزية ! وعن العلاقة بين قناني النبيذ الأحمر ولون الأُفق عند مغيب الشمس ، وهي مجرد تركيب ألفاظ !! قد أركّبها على هيئةٍ أخرى ، فأقول :

هل تليّفتَ بطيبٍ *** هل تَصوبنتَ الضياء

وشربتَ الشمس نارا *** وجعلت الكأس ماء

ستجد من يحلف بهذه العبقرية ، وكيف أطفأتَ لهيب الشمس في كأسك المائي ، لكنك أبقيت من الشمس على ضيائها !

أو لو جعلتَها :

هل جعلتَ الحزن رقصًا *** هل تَعَطَّرْتَ الغِناء

وجعلتَ الأُفْقَ بِسْتًا *** مرقصا للبُلَهاء

لقالوا : لقد مزج الأصالة بالحداثة ، حيث ذكر كلمة (بِست) الأعجمية ، والتي تعني : منصّة الرقص!!

يا بُني ! إنه مجرد كلام مرصوف ، يخالف المألوف ، والمطلوب من العقلاء حمله على المعنى الذي يحلو لهم !

ولأحد رواتنا المشهورين وهو الأديب الكبير عمر فَرُّوخ (رحمه الله) نقد ساخر بقصيدة المواكب ، هو نقدٌ من هذا القبيل الذي أبنتُه لك ، وذلك في كتابه (هذا الشعر الحديث) !!!

الحلقة الخامسة من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين :

فقلت : فالأخطل الصغير ؟

فقال : هو بِشَارة الخُوري ، وهو فحلٌ في رِقّته ، رقيقُ الأبيات ، ذكي الالتفاتات . ولو تسمى بـ(عمر بن أبي ربيعة) لبنان ، لكن أصدق عليه من التلقّب بـ(الأخطل الصغير) ؛ إلا في الدِّين ، فكلاهما نصراني ، ولذلك تلقب بالأخطل .

وقد أبدع في قصيدته التي كتبها في عشق عمر بن أبي ربيعة لمعشوقته نُعم ، وهي بعنوان (عمر ونُعم) ، والتي يقول فيها يصف القُبلة :

يختلس القبلة من مبسمها *** هل تعرف العصفور كيف ينقرُ

وهو إذا أمعن في ارتشافها *** علّمنا كيف يذوب السكرُ

رسالة من فمه لفمها ***كذا رسالات الهوى تُختصرُ

وله في (عروة وعفراء) قصيدة أخرى ، يقول فيها :

مهدَ الغرام ومسرح الغزلانِ *** حيث الهوى ضربٌ من الإيمانِ

يتعانق الروحان فيه صبابةً *** ويعف أن يتعانق الجسدان

فإذا سمعتَ بعاشقين فقُلْ هما *** مَلَكانِ مُتّصلانِ منفصلان

إلى أن يقول فيها عن عروة وعفراء :

مُزجا ، فلو خطرتْ لعفرا فكرةٌ *** بدرتْ بها من عروة الشفتان

وإذا التقى النظران تلمع أسطرٌ *** يَعْيَا بحل رموزها الولدان

حتى إذا كبرا تولى شرح ما *** لم يفهما قلباهما الخَفِقَان

فإذا الوداد هوًى وصادف تربة *** بِكْرًا ، فطاب مغارسًا ومجاني

وله في الخمريات :

فِتَنُ الجمال وثورة الأقداحِ *** صبغتْ أساطير الهوى بجراحي

وُلد الهوى والخمر ليلة مولدي ** وسيُحملان معي على ألواحي

يا ذابح العنقود خضِّبْ كفّه *** بدمائه بوركتَ من سفّاح

أنا لست أرضى للندامى أن أرى *** كسل الهوى وتثاؤب الأقداحِ

أدب الشراب إذا المدامة عربدت *** في كأسها : أن لا تكون الصاحي

وله من رقيق الغزل قوله :

بَلِّغُوها إذا أتيتم حماها *** أنني مِتُّ في الغرام فداها

واذكروني لها بكل جميل *** فعساها تبكي عليّ عساها

واصحبوها لتربتي ، فعظامي *** تشتهي أن تدوسها قدماها

ومن أبياته السائرة قوله :

أنا في شِمال الحب قلبٌ خافقٌ *** وعلى يمين الحق طيرٌ شادي

غنّيتُ للشرق الجريح وفي يدي *** ما في سماء الشرق من أمجاد

فمزجتُ دمعتَه الحنونَ بدمعتي *** ونقشتُ مثل جراحه بفؤادي

وأما قصيدته (هند وأمها) فهي في جمالها فتنة ، أخشى من أن أفتنك بإنشادها لك ، يا بني !

قلت : فأين تضع الشاعر الملقب ببدوي الجبل ؟

فقال : ذاك هو محمد بن سليمان الأحمد السوري ، وهو فحل .

وهل يقول غير الفحل مثل هذه الأبيات في قصيدته (الشهيد) :

إذا المرء لم يملك وُثوبا على الأذى *** فمن بعض أسماء الرّدى الحقّ و الصبرُ

إذا ملكوا الدنيا على الحرّ عنوة *** ففي نفسه دنيا هي العزّ و الكبر

و إن حجبوا عن عينه الكون ضاحكا *** أضاء له كونٌ بعيد هو الفكر

فليلته صبحٌ و عسرته غنى *** و أحزانه نُعمى و آهاته شِعْر

أنزّه آلامي عن الدّمع و الأسى *** فتؤنسها منّي الطلاقة و البِشْرُ

و أضحك سُخْرًا بالطغاة و رحمةً *** و في كبدي جرح و في أضلعي جمر

كِفاءٌ لعسف الدّهر أنّيَ مؤمنٌ *** و عدلٌ لطغيان الورى أنّني حرّ

و ما ضرّني أَسْرٌ و نفسي طليقة *** مجنّحةٌ ما كفّ من شأوها أَسْرُ

أُهَدْهِدُ من أحزانها كلّما ونت *** و يَسْلَسُ بعد المَرْيِ للحالب الدَّرُّ

أُطلّ على الدنيا عزيزًا : أَضَمّني *** إليه ظلام السجن ؟ أم ضمّني القصر

و ما حاجتي للنّور و النّور كامنٌ *** بنفسيَ لا ظلّ عليه و لا ستر

و ما حاجتي للأفق ضَحْيانَ مشرقًا *** و نفسي الضحى و الأفق و الشمس و البدر

و ما حاجتي للكائنات بأسرها *** و في نفسيَ الدّنيا و في نفسيَ الدّهر

يريدون أسراري و للّيل سرّه *** إذا نَقّبوا عنه و ما للضّحى سرّ

و كنت إذا الطّاغي رماني رميتُه *** فلا نُصرتي همسٌ و لا غَضْبتي سرُّ

إلى أن يقول :

و نفسي لوَ انّ الجمر مسّ إباءها *** على بِشْرها الريّانِ لاحترق الجمر

وقال في غيرها مفتخرًا :

نحن كنا كزلزال يعصف بالشر *** قِ نرجُّ الشعوبَ حتى تُفيقا

فابتدعنا من الرؤى واقعَ الحق *** ومن غمرة الظلام البريقا

نَقحم الغامضَ الأشمَّ من المجـ *** ـد ونأبى الممهَّد المطروقا

نحن كالشمس جُرْحُها وهجُ الدُّنْـ *** ـيا غُروبًا مُنوِّرًا و شروقا

وله معتزًّا بإيمانه :

وطباعي على ازدحام الرزايا *** لم ينلها التبديلُ والتغييرُ

مسلمٌ كلما سجدتُ لربي *** فاح من سجدتي الهدى والعبير

ومع الشيب والكهولة قلبي *** كعهود الصِّبا بريءٌ غريرُ

ليَ حريتي وإيمانيَ السَّمْـ *** ـحُ فحلميَ هانٍ وجفني قريرُ

وله بيت فريد في أداء تركيبه لمعناه ، يقول :

وكم في بطون اليعربيّات خالدٌ *** سيُرجع ظهرَ الأرض من حنَقٍ بطنا

وله قصيدة من عيون شعره في مقاومة الاستعمار :

يا سامر الحيّ هل تعنيك شكوانا ** رقَّ الحديدُ وما رَقُّوا لبلوانا

خَلِّ العتابَ دموعًا لا غَناءَ بها *** وعاتب القوم أشلاء ونيرانا

آمنتُ بالحقد يُذكي من عزائمنا *** وأبعدَ الله إشفاقا وتَحْنانا

ويلَ الشعوب التي لم تَسْقِ من دمها *** ثاراتِها الحُمْرَ أحقادًا و أضغانا

تَرنّح السوطُ في يُمْنَى معذِّبها *** ريّانَ من دمها المسفوحِ سكرانا

تُغضي على الذلّ غُفْرانًا لظالمها *** تأنّق الذلُّ حتّى صار غُفرانا

ثاراتُ يَعْرُبَ ظمأى في مراقدها *** تجاوزتها سُقاة الحيّ نسيانا

ألا دَمٌ يَتَنَزَّى في سُلافتها؟! *** أستغفر الثأرَ ! بل جفّت حُميّانا

لا خالدُ الفتحِ يغزو الروم منتصرا *** و لا المثنّى على رايات شيبانا

***

أمّا الشآمُ فلم تُبق الخطوبُ بها *** رَوحا أحبّ من النُّعْمَى و ريحانا

أَلَمَّ واللّيلُ قد أرخى ذوائبه *** طيفٌ من الشام حيّانا فأحيانا

حَنَا علينا ظِماءً في مناهلها *** فأترع الكأسَ بالذكرى و عاطانا

تُنضِّر الوردَ و الريحانَ أدمعُنا *** و تسكب العطر و الصهباء نجوانا

السامرُ الحُلْوُ قد مرّ الزّمانُ به *** فَمُزِّقَ الشملُ سُمّارا و نُدمانا

قد هان من عهدها ما كنت أحسبه *** هوى الأحبّة في بغداد لا هانا

فمن رأى بنت مروانَ انحنتْ تَـعَـبًا *** من السلاسل يرحمْ بنت مروانا

أحنو على جرحها الدامي و أمسحه *** عطرًا تطيب به الدّنيا و إيمانا

أزكى من الطيب ريحانا و غاليةً *** ما سال من دم قتلانا و جَرحانا

هل في الشآم و هل في القدس والدة *** لا تشتكي الثكل إعوالا و إرنانا

تلك القبور فلو أنّي أُلِـمُّ بها *** لم تَعْدُ عيناي أحبابا و إخوانا

يُعطي الشّهيدُ ، فلا و الله ما شهدت *** عيني كإحسانه في القوم إحسانا

و غاية الجود أن يسقي الثرى دمَه *** عند الكفاح و يلقى الله ظمآنا

و الحقّ و السّيف من طبع و من نسب *** كلاهما يَتلقَّى الخَطْبَ عُريانا

***

قل للأُلى استعبدوا الدنيا لسيفهمُ *** من قسَّمَ الناسَ أحرارًا وعُبدانا

إني لأشمتُ بالجبار يصرعه *** طاغٍ ويرهقُه ظلما وطغيانا

لعلّه تبعث الأحزانُ رحمتَه *** فيُصبحُ الوحشُ في بُردَيهِ إنسانا

و الحزن في النّفس نبعٌ لا يمرّ به *** صادٍ من النّفس إلاّ عاد ريّانا

و الخير في الكون لو عرّيتَ جوهره *** رأيته أدمعًا حَرَّى و أحزانا

ثم إن الشاعر ذكر فظائع فرنسا في الشام ، فقال مخاطبا المستعمر الغازي :

تلك الفضائح قد سمّيتَها ظفرا *** هلاّ تَكافأَ يوم الرّوع سيفانا

نُجابِهُ الظلمَ سكرانَ الظُّبى أَشِرًا *** ولا سلاح لنا إلا سجايانا

ضغينةٌ تتنزَّى في جوانحنا *** ما كان أغناكم عنها و أغنانا

***

تُفدى الشموسُ بضاحٍ من مشارقها *** هلال شعبان إذ حيّا بشعبانا[1]

---

(١) في شعبان عيد الثورة العربية التي أضرمها الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز .

دوّت به الصرخة الزهراء فانتقضت *** رمال مكّة أنجادا و كثبانا

و سال أبطحُها بالخيل آبيةً *** على الشكيم ، تريد الأفْق ميدانا

و بالكتائب من فِهْرٍ مقنّعةً *** تُضاحك الشمسَ هِنديّا و مُرّانا

تململ الفاتحون الصِّيدُ و ازدلفوا *** إلى السيوف زَرافاتٍ وَوُحْدانا

و للجياد صهيل في شكائمها *** تكاد تشربه الصحراء ألحانا

السابقاتُ و ما أرخَوْا أعنّتها *** والحاملاتُ المنايا الحمرَ فرسانا

سِفْرٌ من المجد راح الدهر يكتبه *** ولا يضيق به جُهدًا و إمعانا

قرأت فيه الملوك الصِّيدَ حاشيةً *** والهاشميّين طُغْراءً و عنوانا

شدّ الحسين على الطغيان مقتحما *** فزلزل الله للطغيان بنيانا

نُور النّبوة في ميمون غرّته *** تكاد ترشفه الأجفان فرقانا

لاثَ العمامةَ للجُلّى و لستُ أرى *** إلاّ العمائم في الإسلام تيجانا

يا صاحب النّصر في الهيجاء كيف غدا *** نصر المعارك عند السلم خذلانا

ترى السياسة لونا واحدا و يرى *** لها حليفُك[1] أشكالا و ألوانا

لا تسأل القوم أيمانا مزوّقة *** فقد عَيِيْنا بهم عهدًا و أيمانا

أكرمتُ مجدَك عن عَتْبٍ هَمَمْتُ به *** لو شئتُ أوسعتُه جهرًا و تبيانا[2]

***

ما للسّفينة لم ترفع مراسيَها ؟ *** ألم تهيئْ لها الأقدارُ ربّانا ؟

شُقّي العواصفَ و الظلماءَ جاريةً *** باسم الجزيرة مُجْرانا و مُرسانا

---

(١) هم الإنجليز .

(٢) يقول : إكراما لمجدك لن أعتب عليك ؛ لأنك خُدعت ، ولولا هذا المجد لصرحت بالعتب وأوسعته.

ضُمّي الأعاريب من بدوٍ ومن حضر *** إنّي لألمح خلف الغيم طوفانا

يا من يُدِلُّ علينا في كتائبه *** نَظارِ[1] تَطْلَعْ على الدنيا سرايانا

وله من قصيدة أخرى يشكو فيها من تواني العرب في الذود عن دينهم وأوطانهم وكرامتهم :

قد استردّ السبايا كلُّ منهزمٍ *** لم تبق في رقّها إلا سبايانا

وما لمحت سياط الظلم داميةً *** إلا عرفتُ عليها لَحْمَ أسرانا

ولا نموت على حد الظُّبى أنفًا *** حتى لقد خجلتْ مِنّا منايانا

وله من قصيدة أخرى يبين فيها أن الآلام هي منبع الآمال ، فمنها تنطلق النفوس إلى تحقيق غاياتها ، فيقول عن آلامه :

أَلِفْتُ حرَّكِ لا شكوى و لا سَهَدُ *** يا جمرةً في حنايا الصدر تتّقدُ

مُرّي على كبدي حمراءَ داميةً *** يَبقى الحنينُ إذا لم تسلم الكبدُ

و ما أَضِيقُ بهمٍّ حين يَطْرُقُني *** لقد تقاسم حبّي البؤسُ و الرّغد

إنّي أدلّل آلامي و أمسحها *** مَسْحَ الشفيق و أجلوها و أنتقد

حتّى تُطلَّ على الدنيا بزينتها *** حسناءَ تبدو عليها نعمةٌ ودَدُ

بعض الخطوب ظلام لا صباح له *** و بعضها الفجر فيه النّور والرشد

تَفَجَّرَ الخيرُ منه روضةً أُنُفًا *** تدعو إلى ظلّها وانِين قد جُهِدوا

إذا هُمُ جرعوا من مائها جُرَعًا *** توثّبت عزماتٌ فيهمُ جُدُدُ

و مدلجين أضاء الحزنُ لَيْلَهمُ *** حتّى إذا انطفأت أحزانهُم قعدوا

حادوا عن المحنة الكبرى ،ولو صحبوا *** نيرانَها الحمرَ ما ضلّوا ولا انفردوا

فيم التنكّرُ للآلام قاسيةً *** إذا تَباعد في مَيدانها الأمد

---

(١) أي : انتظرنا .

ألطالعون على الدنيا بنصرهمُ *** لولا الفواجع هل شدّوا و هل نَـهَدُوا

إذا وَنَـوْا راح يُذكي من عزائمهم *** حقدٌ : هو العُدّة الشهباء و العَدَدُ

سقاهمُ خمرةَ الآلام فاضطرموا *** يستلهمون من الآلام و احتشدوا

أمّا الشعوب و قد ضجّت عواصفها *** فصاحب النّصر فيها الثاكل الحَرِدُ

لقد تلاقى على الغايات من ظفروا *** بالملك في زحمة الدنيا و من حقدوا

إنّ الألى أنكرَ الأحزان سامِرُهم *** لغوٌ من الناس لا ذُمُّوا و لا حُـمِدُوا

إذا تباكوا من البلوى فما عرفوا *** حزن المحبّين في البلوى و لا وجدوا

الظامئون و ظنّوا أنهّم ثملوا *** و الغائبون و ظنّوا أنهّم شهدوا

وفي هذه القصيدة وصف قبور الشهداء بأبيات ، كان منها بيت واحد يجب تخليده ، حيث يقول فيه :

مصارعٌ بعطور الحقّ زاكيةٌ *** كأنّما سكبوا فيها الذي اعتقدوا

وفي قصيدة أخرى يبدي فيها عن سجية بدوية كريمة وطبعا لا تكلُّفَ فيه ، إذ يقول :

تأبى الشماتةَ في الضعيف شمائلي *** وتَعفُّ عن شِلْوِ الجريح صِفاحي

وأنا الذي وَسِعَ الهمومَ حنانُه *** وبكى لكل معذَّبٍ مُلْتاحِ

أشقى لمن حمل الشقاءَ كأنما *** أتْراحُ كل أخي هوى أتراحي

غَسَلَ الأسى قلبي ، وحسبُك بالأسى *** من غاسلٍ حِقْدَ القلوب وماحي

ونحو هذا الديباج يأتيك شعره !

قال ابن أبي حاتم : فلما أطربني بما أنشد ، ووجدتُه سمحَ النفس ، اغتنمت هذه السانحة ، فانتقلت إلى سؤال جديد ، فإني لا أعلم لعلي لا أغنم منه بفرصةٍ أخرى ، فقلت : قد أكثر الناس في المفاضلة بين البارودي وشوقي وحافظ ، وأعلم الخلاف القديم المتجدد فيهما ، ولكل مأخذه ، لكني أريد معرفة قولك ؟

فقال : يا بني ، بعض المآخذ في التفضيل كانت قد بلغت من السخف أن قيل فيها :

البارودي باشا ، وشوقي بيك ، والباشا أرفع من البيك !!

لكني أخبرك عن ذوق محض ، لا يستطيع منازعتي فيه أحد ؛ لأنه ذوقي الذي لا أَتمارَى فيه ، ولا يحق لأحدٍ أن يماريني فيه :

لا شك عندي في تَقدُّمِ شوقي على حافظ ، ولا شك عندي في تَقدُّمِ حافظٍ على البارودي .

بل شوقي قد حلّق حتى أعجز في بعض ما قال ، كأن بعض معانيه خُلقت بألفاظه منها ، وكأن ألفاظه خُلقت لمعانيه التي افترعها أو حذا فيها حَذْوَ غيره ، مع متانة المعنى ، وعمق الفكرة ، وجِدَّتِها ، أو جِدَّةِ عَرْضِها . وهذا الصنف كثيرٌ عند شوقي ، قليل عند حافظ ، نادر عند البارودي .

الحلقة السادسة من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين :

قلت : أفي شعراء الجزيرة العربية الـمُحدَثينَ فحول ، وهي مهد العربية وأصل ديوان العرب ؟

فقال : لقد أوجعت بسؤالك ، فلا أعرف فيهم فحلا ! فيهم شعراء محسنون ، فيهم من تستلذ بسماع شعره لا بقراءته وتأمله ، فيهم من تجد له البيت المقزَّح (المبهّر : – من البهار– المتوبل : –من التوابل–) بين مائتي بيت مسيخ ، وتجد له المقطوعة الفيحاء (ذات الريح الطيبة) بين ركام من غلي الحجارة والماء .

اللهم غفرا ! إلا طاهر زمخشري ، فإن كان فيهم فحلٌ : فهو !

هو القائل :

أبكي وأضحك والحالات واحدة *** أطوي عليها فؤادًا شَفَّهُ الألمُ

فإن رأيتَ دموعي وهي ضاحكة *** فالدمع من زحمة الآلام يبتسم

قلت : ولا غازي القصيبي ؟!

قال : ولا هو ، وإن كان صالح الشعر ذكي المعاني .

قلت : ولا محمد حسن فقي ؟!

قال : ولا هو ، وإن كان يحسن أيضا ، وليته انتخب شعره ، وسخا في حذف تسعة أعشار ديوانه .

قلت : ولا حمزة شحاتة ، ولا أسامة عبد الرحمن ، ولا القرشي ، ولا أحمد قنديل ؟!

قال : لا ، فالفحولة ضرب آخر ، غير إحسان الفلتة وإجادة اللفتة !

ثم قال : يا بني ، وازن هؤلاء بمحمد مهدي الجواهري في العراق ، كم ترى البون شاسعا ؟!!

قلت : فالشاعر الإسلامي عبد الحمن العشماوي ؟

قال : هو أقل شاعرية من غالب السابقين ، وإن كانت له فلتات إحسان ، لكنها تضيع في خُطب الشعر وشِعر الخُطب !

وسألته عن شاعر المدينة المنورة عبد المحسن بن حِلِّيت الحربي ؟

فقال : شاعر ثائر ، جياش العاطفة ، لكنه ليس فحلا . وقصيدة الفياغرا له أكبر دليل على ذلك !

قلت : كان في زمن يتنافس الشعر الإسلامي مع العشماوي ؟

فقال : هو أشعر من عشرة كالعشماوي !

قلت : ما هي أشهر قصائده ؟

قال : المفسدون في الأرض ، وقد سُجن بعدها !!

قلت : و(حليت) ما ضبطه وما سبب التسمية به ؟

فقال : حِلِّيت اسم والده بكسر الحاء وتشديد اللام المكسورة ، وهو جبل في عالية نجد . وأذكر أن والد الشاعر الشيخ حليت بن عبد الله (رحمه الله) أخبرني بسبب هذه التسمية ، وقد ضمني وإياه مجلسٌ في المدينة المنورة منذ نحو ثلاثين سنة ، وأظنه ذكر أنه وُلد بجوار هذا الجبل ، ولذلك سُمِّي به !!

قلت : فهل تذكر لأحمد قنديل شيئا مما تستحسن من شعره ؟ وإن لم يبلغ عندك الفحولة ؟ فإني وجدته غير ذائع الصِّيت .

قال : له قصيدة بعنوان (قاطع الطريق) ، لو كتب مثلها أربعا أو خمسا ، لكان (فيما أرجو) فحلا . ومقصوده بـ(قاطع الطريق) عابره وابن السبيل : الذي يستحق التصدق عليه رأفة وحنانا ، ولا يقصد به ما يوجب حد الحرابة !

يقول في مطلعها :

فَرِغتْ كأسُه ، فمدّ يديه *** يترجّى من الهباء الشرابا

ومن الريح نسمة وعبيرا *** ومن الصخر قطرة وانسيابا

وانظر إلى هذين البيتين ، كيف أجاد فيهما ؛ إلا في صدر البيت الثاني ! ففي حين يذكر في البيت الأول طلب المستحيل من الهباء ، ويذكر في عجز البيت الثاني طلب المستحيل من الصخر ، تجده يطلب من الريح ما اعتادت حمله (النسمة) و(العبير) !

لو قال : ومن الريح وقفة وثباتا ، أو قال : ومن الريح قبلة وعناقا = لكان أكثر اتساقا !

ثم يقول :

الدياجير مطبقات عليه *** ظللت رأسه رؤى، وضبابا

والأماني من خلفها بازغات *** لمعت كوكبا، ونارت شهابا

والقوافي حارت على شفتيه *** تمتمتْها قصائدا ورغابا

ظامئ ينشد الحقيقة نبعا *** سلسبيلا للروح لذّ وطابا

ضاق بالوهم في النواظر نهلا *** وبمرآه في البراري سرابا

ضائع .. ضائع .. تجلبب رأيا *** عدّه الناس فتنة ومعابا

إلى أن يقول عن هذا الضائع المضيَّع :

واشتهى الناس شهوة السقـــــــــــم : ما ساغ طعاما ولا استلذ شرابا

مسلما للوجود ما قد تبقّى *** من وجود خبا لديه وذابا

ثم يصف انتحار هذا الغريب ، ويصف نوح العذارى واليمامات والعصافير والفراشات، حتى الجن نعته راقصة :

والسعالى والجن ترقص نشوى *** رقصة الموت جيئة وذهابا

قد نعته لليل .. للهب الأحمـــــــــر أذكى بين العروق الطِّلابا

لكن كانت هناك جنية لها رأي آخر :

وأسرّت جنية تمسح الدمــــــــــع لأخرى هامت به إعجابا

لا تراعي ! فسوف يبقى على الدرب ــ مضيئا للسالكيه الشعابا

ثم يقول في أواخر هذه القصيدة :

قل لأهلي .. ناسا دنوت .. ففروا *** ولقومي شعبا مدحت .. فعابا

قدّسوني أو فالعنوني ولكن *** لا تقولوا غطى الترابُ ترابا

سوف أبقى رغم الفناء لتبقى *** صورتي فكرة تنير الشعابا

إنها قصيدة طويلة (تجاوزت مائة بيت) تفيض مشاعر ، وملؤها الألم والشعور بالغربة بين الأهل وفي الوطن ، كتب فيها مشاعره من خلال مشهد عابر الطريق !! وقد رواها كاملة لي الراوية الفصيح عبد العزيز الرفاعي في مكتبته الصغيرة !

الحلقة السابعة من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين :

فسألته عن أبي القاسم الشابيّ التونسي؟

فقال : ذاك الشاب الذي اخترمته المنية عن خمس وعشرين سنة ، ذاك ألم يكتب شعرا، وليس شعرا يكتب الألم !

فقلت : أهو فحل ؟

فقال : هو طَرَفة العصر الحديث في سرعة غيابه ، لا في فحولته .

فقلت : أليس عندك بفحل ؟

فقال : لا ، ولو عاش لكان فحلا .

فقلت : يأبون ذلك عليك !

فقال : وما عليّ في إبائهم ، إنما هو شاعر محسن ، عاش آلام مجتمعه وأمته وأحزان خصوصياته ، يترسم خطا شعراء المهاجر (المهجر) . وإنما يظن هؤلاء أن المثل السائر يجعل الشاعر فحلا ، كبيته الثوري الشهير :

إذا الشعب يوما أراد الحياة *** فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجلي *** ولابد للقيد أن ينكسر

فقلت : فماذا تستحسن من شعره ؟

فقال : قصيدة (النبي المجهول) ، ويعني به : الشاعر ، والتي قال في مطلعها :

أَيُّها الشَّعْبُ ليتني كنتُ حطابا *** فأهوي على الجذوعِ بفأسي

إلى أن قال فيها :

في صباحِ الحَيَاةِ ضَمَّخْتُ أَكوابي *** وأَترعتُها بخمرَةِ نفسي

ثم قدمتُها إليكَ فأَهرقْتَ *** رحيقي ودُستَ يا شعبُ كأسي

فتأَلمتُ ثم أسْكَتُّ آلامي *** وكفكفتُ من شعوري وحسّي

ثمَّ نَضَّدْتُ من أَزاهيرِ قلبي *** باقةً لمْ يمسَّها أيُّ إنْسِي

ثمَّ قدمتُها إليكَ فمزَّقْتَ *** ورودي ودُسْتَهَا أَيَّ دَوْسِ

ثمَّ أَلبسْتَني منَ الحُزْنِ ثوبا *** وبِشَوكِ الجبالِ تَوَّجْتَ رأسي

إنَّني ذاهبٌ إلى الغابِ يا شعبي *** لأقضي الحَيَاةَ وحدي بيأسِ

إنَّني ذاهبٌ إلى الغابِ علِّي *** في صميم الغاباتِ أَدفنُ بؤسي

ثم أنساك ما استطعت فما أنت *** بأهل لخمرتي ولكأسي

فهي تدري معنى الحياة ، وتدري *** أن مجد الحياة يقظة حِسِّ

أرأيت جمال قوله : إن مجد الحياة يقظة حس ؟! نعم .. فالسبات الذي عاشته أمتنا أغفى معها المشاعر ، كما حال النوم دوما : نوم بدن ونوم شعور بالوجود !!

قلت : فما تقول في بيرم التونسي ؟

فضحك ، حتى استلقى على قفاه ، ثم قال : ما علاقة بيرم التونسي بالشعر ، يا هذا ؟

فقلت : له ديوان شعر ، وأذكرني به كونه تونسيا ، كأبي القاسم الشابيّ .

فقال : هو تونسي الأصل ، لكنه مصري المولد والنشأة والثقافة والحياة .

ثم قال لي : هل سمعت يوما بالشعر الحَلَمَنْتِيشِي ؟

فقلت : سمعت عنه ، وأنه الشعر الساخر .

فقال : ليس هذا شرطه الوحيد ، بل شرطه أن تُدخل فيه الألفاظُ العامية ، وتُعرب وكأنها كلمة عربية .

فقلت : وما علاقة ذلك ببيرم التونسي بالشعر الحَلَمَنْتِيشِي ؟

فقال : هو من أرباب صنعته ، مع إكثاره من الشعر العامي . هو والشاعر المصري حسين شفيق المصري .

ولهم (المشعلقات) في مقابل (معلقات الشعر الجاهلي)

ومن أشهر أشعار بيرم الحلمنتيشية قصيدة المجلس البلدي :

قد أوقع القلبَ في الأشجانِ والكمدِ *** هوى حبيبٍ يُسمّى المجلس البلدي

ما شرّد النومَ عن جفني سوى *** طيف الخيال، خيال المجلس البلدي

أمشي وأكتم أنفاسي مخافة أن *** يعدها عامل للمجلس البلدي

إذا الرغيف أتي فالنصف آكله *** والنصف أتركه للمجلس البلدي

وإنْ جلستُ فجَيْبِي لستُ أتركُهُ *** خوفَ اللصوصِ وخوفَ المجلسِ البلدي

وما كسوتُ عيالي في الشتاءِ ولا *** في الصيفِ إلاَّ كسوتُ المجلسَ البلدي

كأنّ أمي أبلّ الله تربتها *** أوصت فقالت: أخوك المجلس البلدي

أخشى الزواج، فإنْ يومُ الزواج أتى *** أن ينبري لعروسي المجلس البلدي

وربما وهب الرحمن لي ولدًا *** في بطنها يدّعيه المجلس البلدي

وإن أقمت صلاتي قلت مفتتحا *** الله أكبر باسم المجلس البلدي

يا بائع الفجل بالمليم واحدةً *** كم للعيال؟ وكم للمجلس البلدي؟

الحلقة الثامنة من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين :

وسألته عن الشعر الحر ؟

فقال : هو شعر ، فحسنه كحسن الشعر ، وقبيحه كقبيح الشعر .

ثم قال : يا بني ، ظهرت صنوف من الشعر (زعموا) في بداية القرن الماضي ، وسميت حينها بـ(الشعر الحديث) ، فها هي الآن أصبحت من القديم ، بعد مائة سنة من ظهورها وأكثر ، وما بقي منها في ذاكرة الشداة الذواقين إلا القليل ، ولا تكاد تحس منها شيئا ولا تسمع لأغلبه همسا ، وبقي شعر شوقي وحافظ وأمثالهما ترانيمَ الليالي وأغانيَ السُّمار ، وشواهدَ الأمثال وسوائرَ القصيد ، وملاذَ الأسماع وعيونَ الكلِم !!

فلا تغرنك كل دعوى تجديد ، فالجديد غدا قديم ، والمحك الإجادة .. لا الجِدّة !

(قال ابن أبي حاتم) : ثم إني سألته عن الشعر المنثور ؟

فقال : معاذ الله أن يكون شعرا !

فقلت : لمَ ؟!

قال : يا بني ، بل قل : ولماذا يكون شعرا ؟! لماذا لا يكون نثرا ؟! فلا فيه جرس الشعر وموسيقاه ، وليس يعيب حُرَّ الكلام وجيّدَه أن يكون نثرا !!

(ثم قال ، بعد زفرة ضجر) : لكني سأجيبك بحجة من نوع الحجج التي يفهمها أبناء عصرك :

هل سمعت بشعر منثور غُني ؟ هل تعرف أحدا لحّنه وغناه ؟ هل سمعت أحدا أنشده نشيدا ؟ هل يجري منه شيء على ألسنة المترنمين ؟

والشعر (يا بني) نشأ توأما للغناء والموسيقى ، فمتى انفصل عنها ، فليس بشعر .

فقلت له : لكنهم يقولون : الشعر ليس الموسيقى فقط ، بل هو مشاعر وأخيلة ورمز ؟

فقال : ومن جعل شرط النثر أن يكون خلوا من المشاعر والأخيلة والرموز ؟! بل النثر لا يكون نثرا أدبيا إلا بذلك أو ببعضه . ونحن لا نقول : إن الموسيقى وحدها شرط الشعر ، وهم لم يقولوا : إن شرط النثر أن لا يكون فيه مشاعر وأخيلة ورموز !!

فقلت له : أليس في هذا المسمى بالشعر المنثور شيء جيد ؟!

فقال : جيده (وهو قليل) شعور منثور ، وليس شعرا منثورا . ولن أسميه كما يسميه غيري : بالنثر المشعور ؛ فإنه إن كان يحكي المشاعر ، فالمشاعر أحق ما أُجلّ في الإنسان (بعد عقله ، أو معه) ، ولا تستحق المشاعر السخرية بها ، فقل عن جيده : شعور منثور ، وعن رديئه : جنون منثور ، بل هذيان بلا شعور ؛ فالهذيان لا منظوم ولا منثور !

الحلقة التاسعة من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين :

ثم إني غدوت إلى الشيخ ، فوجدته ناعم الحال رخي البال ، فأحببت أن أستدرّ ما عنده، فقلت له : شيخي ودليلي وقائدي ...

فصمّتني ، وقال : هات ما عندك يل بني ؟

فقلت : متعنا الله بك ! ماذا تقول في شعراء مدرسة الديوان ومدرسة (أبوللو) ؟

فقال الشيخ : استغفر الله ! كيف تقول مدرسة (أبي لو) بالواو وحقها الخفض : أن تكون بالياء ؟

فقلت : شيخي ! هذا ليس من الأسماء الستة ، وإنما هو اسم أعجمي ، وهو أحد آلهة اليونان الوثنية ، يزعمون أنه إله الشعر والفنون .

فقال الشيخ عقلي : أشهد أن لا إله إلا الله ! وكذب هؤلاء الوثنيون وافتروا على الله الواحد الأحد سبحانه .

ثم قال : يا بني ، لست أومن بفكرة إنشاء مدارس للشعر ، أي أن يتواصى الشعراء على أسلوب معين وأن يحذروا من طرائق أخرى ، فالأساليب الشعرية (قوالب ومضامين) لا تُتخذ بالتوصيات ، وكأنها توصيات مؤتمر علمي ، وإنما يجب أن تكون نتاجا عفويا للواقع لمن كان سليم القريحة صحيح المعرفة ، فهي تنشأ وتتطور في جو من تمازج الحياة والواقع بالموهبة الصريحة المصقولة بالمعرفة الأدبية واللغوية والثقافة الواسعة .

ولعدم العفوية في نشأة تلك المدارس انقرضت إحداها ، كمدرسة الديوان التي أنشأها عبد الرحمن شكري والمازني والعقاد . وأما مدرسة (أبي اللو) فما زال لها وجود ؛ لكن حضورها ليس متميزا ، فهي تدخل في جزء من خصائصها بشعر (الخيال العاطفي) الذي

تسمونه بـ(الرومنسية) .

ومن أعلام مدرسة (أبي اللو) :أحمد زكي أبو شادي ، وإبراهيم ناجي ، وعلى محمود طه ، وغيرهم .

فقلت له : فأين تكون فحولة مؤسسها أحمد زكي أبو شادي ؟

فقال : ليس فحلا ، لكنه يُحسن ، ويُطرب . وهو سهل العبارة ، متنوع ضروب الشعر ، كما هو شرط هذه المدرسة .له من قصيدة يمدح فيها النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ويذكر فيها جمود الجامدين على القديم ، جاعلا من صنوف الجمود أصناما :

يا هادم الأصنام دينُك قَدْرُه *** أن لا تمتّ لوحيه الأصنامُ

بين الذين تعصّبوا وتقهقروا *** وحِجاك يا عَلَم الشعوبِ خصامُ

هم يحسبون الدهر ليس بسائر *** ودليل شرعك للزمان إمامُ

آياته بَنَتِ الفخارَ ولم تزل *** تَسَعُ الذي ترضى به الأفهامُ

من أنكر العلم الصحيح فدِينُه *** وهمٌ ، وليس لمثله إسلامُ

فقلت للشيخ عقلي : زدني منه مختارك من شعره ؛ فإن أمثال شوقي وحافظ مشهورون، وشعرهم سائر بين الناس ، لكن أبناء جيلي لا يكادون يعرفون من شعر هذا النمط شيئا .

فقال الشيخ : عندي من شعره ما ليس عند الراوية الشهير (دار العودة) ، الذي زعم أنه جمع أعماله الكاملة !

ومن ذلك قصيدته الفلسفية الجميلة ، والتي باسم (أقصى الظنون) .

يقول في مطلعها :

أقصى الظنونِ وجودي أصله عدمُ *** ومن عجيبٍ : وجودي ليس ينعدمُ

في ذمّة الصامت الماضي البعيدِ وما *** تخُفي العصورُ هدًى هيهات يُغتنمُ

إلى أن يقول فيها :

قنعتُ من نشأة الدنيا بصورتها *** في الذهن كالحلم ، لولا أنها حُلُمُ

وثُرتُ آنًا على عقلي وضَيعتِه *** بين الظنون التي قد عافها القلمُ

وما أبحثُ سوى تخليد ما نطقت *** به المشاعرُ عن وحيٍ له كَلِمُ

أَحِسَّ أني قرينٌ للوجود وهل *** يُفني الوجودُ قرينًا ليس ينفصم

وما حياتي؟أليست بعضَه وبها *** من رسمه صور شتى لمن رسموا

من الشعاع، ومن هذا الهواء، ومن *** موج الأثير جرى فيها هوى ودم

إذا تأملتُ : فالأمواج تُسْعِفُني *** وإن تغنيتُ : فالأمواج لي نَغَم

كلي شموسٌ من الذرات تربطها *** بالعالم الأكبر الأسبابُ والنُّظمُ

ففي حياتي شعاعٌ من جلالتها *** وفي الممات مصيرٌ سِرُّه عِظَمُ

الله أعلم ! هل روحي سوى قبسٍ *** من الكواكب لا تُودي به الظُّلَمُ

إلى أن قال :

يكادُ يُقسم وجداني : بأن له *** في الكون مُلكا رحيبًا كله خدم

جَمُّ المناجاة ، لا يعصيه مستمعٌ *** لصوت نجواه ، حتى الصخر والأجمُ

فليس ترشدُه إلا مداركُه *** وليس تلهيه أضغاثُ الأُلى زعموا

وليس يزعجُه موتٌ ، وليس له *** غيرُ الحنين لأشباهٍ له علموا

وله قصيدة في الطائر المغرد اللطيف الرقيق (الكناري) ، جعلني أقتنع بأن حبسه في القفص ليس مما يوجب الألم والتأسف عليه!

حيث قال :

يا سِحْرَ فَنّي ** غَرِّدْ وغنِّ

لا تَشْكُ مني ** أنت الأمير

أهواك قُربي ** بِرًّا بحبي

نجواك قلبي ** حظ كبير

ما أنت إلا ** وحي تجلَّى

طيرا وخلّى ** شِعري الأسير

لا تشْكُ حبسا ** لا تشكُ بأسا

فالشمس أقسى ** والزمهرير

عِشْ عيش ناسك ** مثلي وشارك

حالي كحالك ** حال الفقير

ومن أشهر قصائده قصيدته عن المجهر (التليسكوب) ، التي نشرها في ديوانه (الشفق الباكي) ، وقد زعم أحد الرواة وهو (دار العودة) ببيروت أنه حفظ أعماله الكاملة ورواها للناس ، وهذه دعوى عريضة (غير صحيحة) ، فقد روت لي ديوانه المذكور (الشفق الباكي) راوية سلفية (نعم .. سلفية!!) ، هي المطبعة السلفية بمصر ، عام ١٣٤٥هـ ١٩٢٦م !

وسبب اشتهار قصيدته (المجهر) هو طرقه لموضوع غريب ، ما اعتيد على مثله .

يقول في مطلعها :

صحبتك عُمرًا في وفاء ومتعة *** فكنتَ لفني ملهما ولأفكاري

فكم من بيان لاح لي منك مرشدا *** وكم من معانٍ قد وهبتَ وأسرارِ

ويُذهل قوما أن يحبك شاعرٌ *** وما عرفوا فني الدقيق وأشعاري

وكتب قصيدة مستبيحا فيها نظر الاستحسان إلى الغادة الحسناء ، وهي مسألة للفقه فيه قولان إذا كان النظر ليس عن غريزة شهوة .

فقال في قصيدة له باسم (النظر الجريء) :

لا ترهبي نظري الجريء *** هو لن يسيء ولن أُسيء

هو نشوة الحب الطهو *** ر ووثبة الروح المضيء

روحي تطل عليك منـ *** ـه وتجتلي القدس الوضيء

وتعبّ من هذا الحنان *** شراب كوثرها الهنيء

هو خلسة من نعمة *** عُلوية ليست تفيء

خُطفت من القدر العتيّ *** لدى ظلالٍ من هدوء

فعلام نخشاها وما *** فيها سوى الشكر البريء

وللشاعر قصيدة أخرى ، من معالم شعره المهمة ، هي قصيدة (فلسفتي) ، وأولها :

شربت فلسفتي من نبع آلامي *** وقبلها عبّ منه قلبيَ الدامي

وما برحت أغني زاخرا أبدا *** كأن آلام قلبي لسن آلامي

كأن دمعي أناشيدٌ قد احتبست *** حتى تُراق على قُدسيٍّ أنغام

ثم يقول :

أنا الضعيف ، ولكني العتيُّ على *** نفسي إذا النفس لم تعبأ بأحكامي

إلى أن قال ذاكرًا شعره :

ما سفَّ يوما ، وإن يجهلْه من جهلوا *** أن الحياة تعالت فوق أحلام

وأن وجدي وتفكيري وفلسفتي *** ليست سوى مُثُلٍ من فنِّ رسام

هذا هو الشاعر أحمد زكي أبو شادي .

فحمدت للشيخ إنشاده ، وقلت في نفسي : لقد برّز شيخي في خبره وإنشاده على الراوية الشهير (دار العودة) ! وعلمت أني قد وقعت على كنز ثمين !!!!!

الحلقة العاشرة من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين :

وسألته فقلت : سيدي ! لقد التبس عندي مرادك بـ(الفحل) ، فمرة تقول : فلان شاعر محسن وليس بفحل ، وتقول : فلان أشعر من فلان وكلاهما ليسا فحلين ؟

فقال : الفحل عندي : هو من كان شعره بين الذروة والجودة ، وقليله هو الرديء ، فلا تمل من قراءة ديوانه باحثا عن شيء تستلذ به . أما من لم يبلغ الذروة قط ، حتى لو كان غالب شعره جيدا : فليس بفحل ، فضلا عمن تتجلّد لقراءة ديوانه غاية التجلّد بحثا عن شيء يستجاد .

ثم قال : ألا ترى أن الأصمعي لم يُدخل عمرو بن كلثوم في الفحول ، مع كونه صاحب إحدى القصائد السبع الطوال ، من مستجاد شعر العرب ، كما في اختيار كثير من النقاد الأوائل : بدءا بحماد الراوية (ت١٥٥هـ) الذي جمعها في رواية واحدة ، وكأبي بكر الأنباري (ت٣٢٨هـ) ، في كتابه (شرح القصائد السبع الطوال) ، وأبي جعفر ابن النحاس (ت٣٣٨هـ) في شرحه للقصائد التسع ، وكالزوزني (ت ٤٨٦هـ) في شرحه للقصائد السبع ، وكأبي زيد ابن أبي الخطاب القرشي (المتوفى أوائل القرن الرابع خلافا للزركلي وغيره الذي أرخ وفاته بسنة ١٧٠هـ) في كتابه (جمهرة أشعار العرب) وغيرهم ، ولكن القرشي سمى هذه القصائد السبع بـ(السموط) ، وهي نفسها القصائد المسماة بـ(المعلقات) .

قلت : لكن محمد بن سلام الجمحي أدخل عمرو بن كلثوم في الفحول في كتابه (طبقات فحول الشعراء) ؟

فقال : وهذا يبين لك اختلاف معايير الفحولة عند العلماء ، وقد أبنت لك عن معياري .

فقلت : ولماذا اخترت هذا المعيار ؟

قال : لسببين :

أولهما : أن الإحسان درجات متفاوتة ، والمقصود بوصف الفحولة من وصل غاية درجات الإحسان .

ثانيهما : أن الإحسان المغمور في الرداءة كالحسنة المغمورة في بحر من السيئات ، فلا بد للفحل من أن يكون الإحسان غالبا عليه ، أو مكثرا منه ، حتى لا يُملّ قارئ ديوانه بتتابع الرديء قبل أن يصل لما ينعشه من الجيد المُطرب .

(قال ابن أبي حاتم) : فلما انتهى من بيانه ، أردت التخفيف بالسؤال عن شاعر واحد ، وهو أمين نخلة (ت١٣٩٦هـ) .

فقلت : سيدي ، فأين تضع الشاعر اللبناني أمين نخلة ؟ أهو من الفحول ؟

فقال : هو ممن عرف بأبيات قليلة لطيفة ، لا تدخله في الشعراء المحسنين ؛ لقلتها ، فضلا عن الفحول .

قلت : وما هي تلك الأبيات ؟

قال : قوله :

أنا لا أصدق أن هذا ** الأحمر المشقوق فمْ

بل وردة مبتلّةٌ ** حمراء من لحم ودم

أكمامها شفتان ، خذ ** روحي ، وعلّلني بشم

إن الشفاه أحبها ** كم مرة قالت : نعم

وله أيضا نحوها قوله :

أحبك في القنوط وفي التمني *** كأني منك صرتُ وصرتَ مني

أحبك فوق ما وسعت ضلوعي *** وفوق مدى يدي وبلوغ ظني

هوى مترنّحُ الأعطافِ ، طلقٌ *** على سهل الشباب المطمئنّ

أبوح إذن ، فكل هبوب ريح *** حديثٌ عنك في الدنيا وعني

سينشرنا الصباح على الروابي *** على الوادي ، على الشجر الأغنّ

أبوح إذن ، فهل تدرى الدوالي *** بأنك أنت أقداحي ودنّي

أتمتم باسم ثغرك فوق كأسي *** وأرشفها ، كأنك ، أو كأني

قال : وبعد هذه الأبيات القليلة لن يفوتك شيء تتحسر على فواته من ديوانه المجموع الذي رواه (دار صادر) ، ذلك الراوي المكثر ، مع نقص في الإتقان ؛ إلا القليل مما يتقنه . على أن هذا الراوي (دار صادر) له فضل كبير بكثرة ما حفظ وروى من دواوين الشعراء ، لكنه لو تمم ذلك بالإتقان ، لكان غاية الأدباء واللغويين .

الحلقة الحادية عشرة من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين :

فسألته عن الشاعر السوداني الهادي آدم (ت١٤٢٧هـ ٢٠٠٦هـ) ؟

فقال : ليس فحلا ، لكن له شعر حسن .

فقلت : له قصيدة مشهورة جدا ، بعنوان (غدا ألقاك) ؟ ألا تدخله في الفحول ؟

فقال : هي قصيدة قيل لي إنها من الشعر المغنَّى ، وأن أستاذة الغناء في العصر الحديث أم كلثوم (رحمها الله) قد غنتها.

فقلت : نعم ، أفلا تدخله في الفحول ؟

فقال : لا تدخله فيهم ، فهي من رقيق الشعر وحسنه ، لكنها ليست من الفحولة في شيء.

قلت : فهل ترويها كما أنشأها الشاعر ، لا كما غنتها أم كلثوم ؟

قال : نعم ، يقول :

أغدا ألقاك يا خوف فؤادي من غد

وأحييك ، ولكن بفؤادي أم يدي

أم بطرف خاشع اللمح كليل مجهد

ليس أدري كيف ألقاك ؟ ولكني صَدِي

ظامئ أرهقه البين وطول الأمد

**

أنت يا جنة حبي واصطخابي وجنوني

وفي رواية أم كلثوم : واشتياقي وجنوني ، لكني أنقل لك ما رواه لي الشاعر نفسه في

(كوخ الألم) . ولأم كلثوم (رحمها الله) تبديل كثير في شعر الشعراء ، حذفا وتغييرا وتقديما وتأخيرا . والحقيقة أن اختيارها هنا كان أوفق من اختيار الشاعر ، وهذا لا يُستغرب منها ، فيقال : إنها تحفظ ألوفا من الأبيات ، وأنها كانت شديدة المناقشة للشعراء في اختيارات ألفاظهم .

أنت يا قبلة روحي وانطلاقي وشجوني

أنت يا معبد صمتي وصلاتي وسكوني

أغدا ألقاك يا خوف فؤادي من غد

وأحييك ، ولكن بفؤادي أم يدي

**

أنا أخشى من غدٍ هذا وأرجوه اقترابا

كنت أستدنيه لكن هبته لما أهابا

ونولت دهشة القرب فؤادي فأنابا

هكذا استبطن العمر نعيما وعذابا

مهجة سكرى وقلب مستهام يتغابى

(إلى أن يقول :)

فغدا لا نعرف الغيب ولا ماضٍ تولّى

وغدا لا يعرف القلب لهذين محلا

وغدا تصطخب الجنة أنهارا وظلا

وأحيكك .. لكن بفؤادي ، ليس إلا

(قال الشيخ) وروح هذه القصيدة هو قوله :

أنت يا جنة حبي (واشتياقي) وجنوني

أنت يا قبلة روحي وانطلاقي وشجوني

أنت يا معبد صمتي وصلاتي وسكوني

وله أبيات أخرى تنفع أن تكون من الأمثال السائرة بين الناس ، وهي قوله :

يا من يفاخر بالحياة ** بما أحاط وما وعى

العلم خصم للغرور ** فكيف صوتهما معا

مهلا فعيب العلم أن ** بلوغه لا يُدّعى

ثم لما ذكرنا من الشعر المغنى ما ذكرنا ، تجرأت فسألته عن شاعر آخر غنت له أم كلثوم العديد من القصائد ، وهو الشاعر المصري طاهر أبو فاشا (ت١٤٠٩هـ ١٩٨٩م) ؟

فقال : وما أدراك بغنائها يا فتى ؟!

فقلت : كما دريت به يا شيخي!!

فقال : أما أنا فكنت أستمع الغناء في ميعة الشباب ، وحتى بعد هجري له ما يزال يطرق سمعي منه في أثناء تجوالي وتسفاري ما يذكرني منه ما نسيت ، كما أني قد اقتنيت كتابا من كتب الأغاني ، كان يمكن أن يكون على غرار كتاب أبي الفرج الأصبهاني ، جمع فيه كاتباه د/ إيزيس فتح الله ومحمود كامل جميع ما غنته أم كلثوم في مجلد كبير ، واقتنيته أثناء تجوالي في مكتبات القاهرة ، من مكتبة الشروق .

ثم إنه سكت قليلا وقال : نسيت اسم شاعرك الذي تسأل عنه ، فما هو اسمه ؟

قلت : طاهر أبو فاشا ؟

فقال : هو عندي فحل ، أو كاد !

فقلت : سبحان الله ! ألهذا الحد هو مجيد ، رغم عدم شهرته شهرة غيره ؟

فقال : نعم ، وله ديوان شعر من انتخابه هو ، جمع فيه عيون قصائده ، وسماه (راهب الليل) ، وهو من رواية دار الشروق سنة ١٤٠٣هـ ، أي قبل وفاته بست سنوات فقط . ولو كنت سأختار من شعره شيئا ، لاخترت عامة ديوانه هذا .

وله في هذا الديوان قصيدة تنضح بمذهب أهل الجبر في القدر ، سماها (طاعة

المعصية) ، وبئست الطاعة ، يقول فيها :

أنشأتَ نسرا وخلقت قُبّرة ** وصفت ظبيا وارتجلتَ قسورة

تناحر البقاء في هذا الشرة ** مجزرة في الدهر أي مجزرة

فمن أتاح الكون تلك السيطرة ** ومن أمدّه بتلك المقدرة

والذنبُ يا رباه من ذا صوّره ** من قال : كن ذنبا ، ومن ذا قدّره

قد جئته عمدا كيما تغفره ** ومن صِلاتي بك دمع المعذرة

إن لم يكن ذنب ففيم المغفرة

**

إن عَبَدَ الناسكُ ما شوّقْتَهُ ** إن رهب الراهب ما خوّفتَهُ

فقد عبدتُ فيك ما قدّرتَه ** أردت يا ربي ما أردتَه

فما الذي أجرم من نحتَّه ** من صخرة الإثم الذي جبلتَه

وإن أكن عصيت ما أمرته ** فإنني أطعت ما أبرمته

أيخرج العبد على ما شئته .

**

عصياني الطاعات إن أسأتُ ** كطاعة العصيان إن أحسنتُ

رحماك يا ربي فإني حرتُ

(ثم قال:) ولكن له قصيدة أخرى في الدعاء والابتهال ، عساها تمحو وزر تلك ، يقول فيها :

لغيرك ما مددت يدا ** وغيرك لا يفيض ندا

وليس يضيق بابك بي ** فكيف ترد من قصدا

ورُكنك لم يزل صمدا ** فكيف تذود من وردا

ولُطفك يا خفي اللطـــــف إن عادي الزمان عدا

**

على قلبي وضعت يدا ** ونحوك قد مددت يدا

سرى ليلي بغير هدى ** ولا أدري لأي مدا

سرى يطاردني الأسى أبدا ** ويرعاني الجوى أبدا

وينشر في الهوى روحا ** ويطريني الهوى جسدا

وأطوي البيد طاوية ** كأني في الفضاء صدى

**

نهاري والهجير لظى ** وليلي والظلام ردى

فواكبدا إذا أُضحي ** وإن اُمسي فواكبدا

وليس سواك لي سندٌ ** فقدتُ الأهل والسندا

وانظر إلى رقة قصيدته التالية ، التي يقول فيها :

حانة الأقدارْ

عربدت فيها لياليها

ودار النورْ

والهوى صاحي

**

هذه الأزهارْ

كيف نسقيها ، وساقيها

بها مخمور

كيف يا صاحِ

**

سألت عن الحب أهل الهوى

سقاة الدموع ندامَى الجوى

فقالوا : حنانَك من شجوه

ومن جِدّهِ بك أو لَـهْوِه

ومن كدر الليل أو صفوه

سلي الطير إن شئتِ عن شدوه

ففي شدوه همسات الهوى

وبَـرْحُ الحنين و شرح الجوى

**

ورحت إلى الطير أشكو الجوى

وأسأله سرَّ ذاك الجوى

فقال : حنانَك من جمره

ومن صحو ساقيه أو سُكره

ومن نهيه فيك أو أمره

سلي الليل إن شئت عن سره

ففي الليل يُبعث أهلُ الهوى

وفي الليل يكمن سر الجوى

**

ولما طواني الدُّجى والجوى

لقيت الهوى وعرفت الهوى

**

ففي حانة الليل خمّـاره

وتلك النُّـجيمات سُمّـاره

وتحت خيام الدجى نارُه

وهمس النسائم أسراره

وفي كل شيء يلوح الهوى

ولكن لمن ذاق طعم الهوى

واشتهرت قصيدته التي ضمنها أبياتا منسوبة لرابعة العدوية في الحب الإلهي ، وهي قوله :

عرفتُ الهوى مذ عرفت هواكا *** وأغلقت قلبيَ عمن عداك

وقمتُ أناجيك ، يامنْ ترى *** خفايا القلوب ولسنا نراكا

(أحبك حُبيّن: حب الهوى *** وحُبًّا لأنك أهلٌ لذاكا

فأما الذي هو حبُّ الهوى *** فشغلي بذكرك عمّنْ سواكا

وأما الذي أنت أهلٌ له *** فكشفكَ لي الحُجبَ حتى أراكا

فلا الحمدُ في ذا ولا ذاكَ لي *** ولكن لك الحمد في ذا وذاكا)

وأشتاقُ شوقين: شوق النوى *** وشوقاً لقرْب الخطى من حماكا

فأما الذي هو شوقُ النّوى *** فمسرى الدموع لطولِ نواكا

وأما اشتياقي بقربِ الحمى *** فنارُ حياةٍ خبتْ في ضياكا

ولستُ على الشّجو أشكو الهوى *** رضيتُ بما شئتَ لي في هواكا

وله أيضا في العشق الإلهي قصيدة بعنوان (يقولون لي غنِّ) ، يقول فيها :

غريبٌ على باب الرجاء طريحُ *** يناديك موصولَ الجوى وينوحُ

يهون عذابُ الجسم والروح سالم *** فكيف وروح المستهامِ جروحُ

وليس الذي يشكو الصبابة عاشقًا *** وما كلُّ باكٍ في الغرام قريحُ

يقولون لي غنِّ وبالقلب لوعةٌ *** أُغني بها في خلوتي وأنوحُ

ولي في طريق الشوقِ والليلُ هائمٌ *** معالم تخفى تارةً وتلوحُ

ولي في مقام الوجد حالٌ ولوعةٌ *** ودمع أُداري في الهوى ويبوحُ

وأنت وجودي في شهودي وغيبتي *** وسرُّك نور النورِ ، أو هو روحُ

وما رحلت إلا إليك مواجدي *** وداعي الهوى بالوالهين يصيحُ

بسرّ الهوى يغدو ، وفيه يروحُ *** غريبٌ على باب الرجاء طريحُ

وله قصيدة أخرى في الحب الإلهي سماها (عروس السماء) ، يصور فيه ساعة وفاة العابدة التقية رابعة العدوية ، حاكيا ما يتوهمه من نشيد الملائكة في استقبال روحها ، يقول فيها :

أوقدوا الشموس ** أُنقروا الدفوف

موكب العروس ** في السما يطوف

المنى والقطوف

أُنقروا الدفوف

الرضا والنور ** والصبايا الحور

والهوى يدور

آنَ للغريب ** أن يرى حِماهْ

يومه القريب ** شاطئ الحياه

والمنى والقطوف

في السما تطوف

أُنقروا الدفوف

وله قصيدة في سيجارته ، هي من أجمل ما قيل في التنفير عن التدخين ! يقول فيها :

معلَّلةٌ كأن النار فيها *** دبيبُ اليأس يصرخ في إهابي

وأحسب أنني أشعلت فيها *** بقايا مهجتي دون الثقاب

تُـخدّرُ من همومك وهي همٌّ *** وتوردك المعاطبَ كالرغاب

وتُنسيك الليالي وهي ذكرٌ *** من النسيان ملتطم العباب

كأني حين أنفثها دخانا *** وأُغرق في سحابتها سحابي

أُحيل قليل أيامي بخورا *** وأَعقده على هذا الضباب

وأشعر حين تخبو أن نفسي *** شعاع في يد الأقدار خابي

**

مصاحبتي وأنت حطام نفسي *** متى كان العدو من الصحاب

إذا ارْفَضَّ النديُّ وبتُّ وحدي *** وطال الليل بي وخلا وطابي

هربتُ لها على علمي بأني *** أفرّ من العذاب إلى العذاب

ومن مختار شعره قصيدته التي بعنوان (رويدَك يا عيني) ، ويذكر فيها حزنه على فقدان زوجه ، والتي يقول فيها :

أقول وقد ضاقت بحاجتها النفسُ *** رويدَك يا عيني فقد فاضت الكأسُ

رأيت الليالي آسياتٍ جوارحًا *** فما لليالينا تُصيب ولا تأسوا

ولو كان جرحَ النفس ، هان احتماله *** ولكنه جرحٌ تكابدُه النفسُ

فوارحمتا للقلب كيف اصطبارُه *** وآهٍ على عهدٍ تَولَّى به الأمسُ

وآهٍ على من لا يراني ولا أرى *** سواه ، ومن يحنو عليّ ولا يقسو

لقد حال صفو العيش بعد رحيله *** ، وأصبحت وحدي لا أنيسٌ ولا أُنسُ

وإن جدار الصمت بيني وبينه *** لشيءٌ رهيبٌ لا يحيط به حدسُ

وإن ستار الموت دوني ودونه *** لكالليل إذ يغشى جوانبَه اليأسُ

فيا ليتَ أن الله حين قضى بما *** قضاه طواني فاحتوانا معًا رمسُ

وله قصيدة جزلة الألفاظ والمعاني عن حلول شهر الله المحرّم ، يقول فيها :

عاد بعد النوى وألقى الرحالا

صامتٌ قام يخطب الأجيالا

وشهيدٌ على الزمان قديمٌ *** كالزمان القديم يأبى الزوالا

وكأن الظلام حول مرائيه غبارُ الدهور مرت ثقالا

والزمان العجوز داهية يرتجلُ الموتَ والحياة ارتجالا

والزمان العنيد أحمق يرتاد المنايا ويركب الأهوالا

والزمان العجيب أسطورة ينسجها الوهم للوجود خيالا

صامتٌ قام يخطب الأجيالا

ودَّ لو ترجم الضياء مقالا

وبواكيرٌ من سناءٍ تهادى كتباشيرٍ من رجاء تلالا

خطّه الغيبُ في السموات سطرا وَهِم الناسُ إذ دعوه هلالا

هو همسٌ في خاطر الكون مشبوبٌ يقصُّ التا ريخ والأبطالا

هو فنٌّ على السماء ، ومعنى كالمعاني ، وهِجرةٌ تتوالى

هو شيءٌ غير الأهاليل يُوفي كل عام فيُوقظ الآمالا

خنجرٌ في يد المحرّم مسلول على عالم يضج خبالا

قد لواه الطعانُ في لجب الدهر وعنفُ الطعانِ يلوي النصالا

ومن أمتع ما قال قصيدته (ميلاد شاعر) ، يقول فيها :

إلى مثله تصبو عذارى الخواطرِ *** وفي يومه تصحو سكارى المزاهرِ

وفي كل همس حول معناه ضجةٌ *** وفي كل معنىً منه صرخةُ ثائر

ألـمَّ على الأيام يسقي جديبها *** ويبني جديدا فوق أطلالِ داثر

هو الشِّعرُ ما غنى ربيعٌ ، وما بكى *** خريفٌ ، وما اخضلّت عيون الأزاهر

تراتيلُ أنسامٍ ، وتسبيحُ جدولٍ *** وأنةُ موجوعٍ ، ومصباحُ حائر

أراق على وجه الصباح ضياءه *** وعاقره في الليل صمتُ الدياجرِ

وودّت بناتُ الزهر لو أن عَرفها *** من النغم القُدسيّ سَبْحةُ خاطرِ

وإن جمالا لم تسجله ريشةٌ *** من الفنّ نهبٌ للسوافي الثوائر

وإن حياة لا تحس جمالها *** لتكليفُ مصفودٍ ، وصفقةُ خاسر

تغنّت به الآبادُ من قبل عزفه *** كلاما فجاب الدهرَ أولَ عابرِ

وأرهص للأوتار حتى إذا شدا *** تجاوب فَرْحُ الكون في بَرْح ساهر

ودقّت نواقيس الحياة وأطلقت *** رهابينُها في الجوّ رُوحَ المباخر

ونادى منادٍ في السموات : أوقدوا *** كواكبَها ، فاليوم ميلادُ شاعر

إلى آخر هذه القصيدة التي تطاوعت له فيه المعاني والألفاظ تطاوعَها للفحول !

الحلقةُ الثانيةَ عشرةَ من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين :

قلت للشيخ : لقد جاءني يا شيخ سائل يسأل عن الشاعر الأردني مصطفى بن وهبي التلّ الملقب بـ(عرار) (ت١٣٦٨هـ ١٩٤٩م) ؟ فما قولك فيه ؟

فقال : ليس فحلا ، ولا قريبا منه . وشعره الجيد لا يتجاوز أواسط الجيد !!

فقلت : يصفونه بأنه شاعر الأردن ؟!

فقال : يا بني ! هو رجل صار لأبنائه مناصب عليا في الأردن ، فابنه وصفي التل (رحمه الله) كان رئيس الوزراء في السبعينيات (١٩٦٢م – ١٩٦٦م) ، وابنه معالي الدكتور سعيد التل تولى عدة مناصب وزارية وعلمية ، وهو من أعيان الأردن الآن . ومن كان لأبنائه هذه المناصب لا يُستغرب أن يوصف بأجل الأوصاف ، كـ(شاعر الأردن) ، وأن يُنفخ في حَبة إحسانه الصغيرة لتكون قُبّة كبيرة . وهذا لا ينفي أنه كان ربما أجاد ، لكن أن تقوم عليه دراسات ، وأن تجرى عليه أبحاث ، ما كان ليكون كذلك لولا ذلك الجاه !

ولو خرجت عن بلده ، لكدت لا تجد له ذكرا ! والأدباء في الأرض كلها هم شهود الأدب ! لا في الأردن فقط !! على أني أخبرك عن معياري ، فلو خالفني فيه الرافعي والعقاد (وحاشاهما أن يخالفوا في مثل شعره) ، لما تزحزحت عن رأيي فيه .

واسم ديوانه (عشيات وادي اليابس) ، وهو في جزء من شعره قريب من مدرسة الإحياء، وجزء منه شعر حلمنتيشي (الشعر الساخر : الذي يُعرب اللفظ العامي ، ويُدخله في القصيدة الفصيحة).

وإنما اشتهر بثورته على كل شيء ، وبسخطه حتى على ضوابط الشعر ، وباستهتاره

بالخمر ومحاولته مجاراة أبي نواس في ذلك . فكان شعره يسري في الناس لجرأته على ما لا يجرؤ عليه غيره ، ولكونه ربما خرج شعرا سهلا غير متكلّف (كعامة شعراء مدرسة الإحياء) ، لا لكونه شعرا جيدا .

وقد بلغه ذم بعض الناس شعره ، فقال فيهم قصيدة ، يقول في مطلعها :

ما ذم شعرك إلا معشر سُمُجُ *** في حلبة الذوق إن أرسلتهم عرجوا

لو كان فيهم من الانصاف منقبة *** ما استنكروا لبسك البنجور يافرج

ففي السموكن والبنجور مكرمة *** بغيرها الناس في الزوراء ما لهجوا

وهذا مثال من أمثلة شعره الحلمنتيشي !

ومن شعره في التمرد على علوم اللغة ، ويشير فيه إلى السكاكي صاحب (مفتاح العلوم) في علم البلاغة ، وإلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أول من قيّد علم العروض :

دعني بربّ السكاكيّ من بلاغته *** وقوله مقتضى حال وإنشاءُ

أما فراهيد فاستغفر لصاحبها *** وقوله من عيوب الشعر إقواء

فجودة السبك في الأقلام موهبةٌ *** ورائع النظم كالتنزيل إيحاء

ويقول أيضا ساخرا من جامدي الشعراء في معنى مبذول لا جديد فيه :

هذا هو الشعر لا نظم يطالعنا *** به عجوز أخو ستين هَذّاءُ

يقول ، وهو الذي ما اجتاز مرحلة *** على جواد ، ولا لفّته بيداءُ

ولا رأى العيس يحدوها أخو رجز : *** يا حادي العيس إن الركب أنضاء

لقد كان نحو هذا الشعر كافيا ليضحك الناس ، وليسري بينهم كالنار في الهشيم ، ولولا أن الأذواق صارت هشيما (لا غصنا رطبا ولا حطبا جزلا) لما أوْرى فيها هذا الشعرُ نارا ولا قدح شرارا .

وله قصيدة في الخمريات يقول فيها :

هاتها واشرب فإنّ العيد فِصْحُ *** وقبيحٌ بالفتى في العيد يصحو

يقول في خاتمتها :

موطني الأردن لكني به كلما داويت جرحًا سال جرح

وبنفسي رحلة عن أرضه عله يشفي من الإرهاق نزح

ومن أحسن شعره قوله في الخمريات :

سكر الدهر ، فقل لي : كيف أصحو *** والندى يبخل والجود يشحُّ

وأنا يا سيدي الشيخ كما ** قلت عني حيث ينحو الحب أنحو

وحياتي لا تسل عن كنهها ** إنها حان وألحان وصدح

وأماني شبابٍ فاتها ** مثلما فات بني الأردنّ نُجْح

وعثار الجد قد صيرها *** عبرة خرساء هيهات تسح

فهي أحياناً بشعري آهة *** وهي أحياناً جوى يُشجي وبَـرْحُ

وهي طوراً في مغاني قصفهم *** عربداتٌ تُضحك الثكلى ورَدْحُ

إلى أن يقول :

فافتني يا شيخ هل لي بعدما *** جاءكم عني عما بيَ نَدْحُ[1]

ودع الساقي يدر كأس الطلا حِسبةً لله فالسكر أصح

إلى أن يقول :

أَنا إن أَصمت فصمتي حَسْبُـهُ أنه صوت الأَرِقّاءُ الأَبحُّ

أيها الباكي على أوطانه لا يرد الروحَ للميْت نوحُ

باركِ الظلمَ وصفِّقْ للأذى فهما نصرٌ من الله وفتح

ومن شعره النُّواسي قوله :

إني أخو طرب أعيش لأنتشي *** علّ الزمان يدوخ من نشواتي

---

(١) أي : متّسع .

(سكران) وقد صدقوا ورب محمد *** إني أخو طربٍ فتى حاناتِ
أُسقى وأشربها وأعرف أنها *** رجسٌ ومن عمل اللعين العاتي
لكن فيها للأنام منافعا *** قد تجمع الشملين بعد شتات
ومن شعره المطبوع ، الجاري على نمط شعر البداوة القديم قوله :
أفي كلّ يوم أنت مضنى مروَّعُ *** تشوقك أوطانٌ وتُصْبِيك أَرْبُعُ
تعشقتها طفلا صغيرا كأنّما *** رضعت هواها قبلما كنت ترضع
فقلت : يا شيخ ، سيغضب منك الأردنيون ؟!
فقال : يا بني ، لقد أنصفتهم من نفسي بشيئين :
الأول : ما ذكرته في شعراء الجزيرة العربية ، وهم قومي .
والثاني : أني لا أقول إلا ما أحسه وأتذوقه ، ومحال أن يماريني في ذوقي مماري !
نعم .. يمكن المعارض أن يعيب ذوقي ، لكن لا يمكنه أن يلزمني بذوقه .

الحلقةُ الثالثة عشرةَ من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين :

(قال ابن أبي حاتم) : عرفنا عباس بن محمود العقاد (ت ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م) أديبا ناثرا وناقدا من الطراز الأول ، فكيف هو شاعرا ؟ خاصة وأنه (مع شكري والمازني) مؤسس لمدرسة الديوان ؟

فقال الشيخ : هو فحل شاعرا ، وأفحل منه ناثرًا .

فقلت : سمعت من ينتقص شاعريته بجفاف الأحاسيس ، وبغلوها في تعميق الفكرة أكثر من إشباعها بروح الشعر ، وهي العاطفة ؟

فقال الشيخ : لقد ظُلم العقاد كثيرا في أدبه نثرا وشعرا ، وكما قيل : لم نر أديبا وُصم باسمه كـ(العقاد) ، فقد استغلّ أعداؤه وخصومه هذا الاسم (العقاد) وإيحاءاته بلا مروءة ، فالعقاد معقّد الأدب ! حتى أصبح التعقيد هو الانطباع السابق عن نتاج العقاد في نفوس كثير من القُرّاء!

ومع عدم صحة إطلاق هذا التصور عن أدب العقاد ، إذ فيه الكثير من السهل الممتنع ؛ إلا أن عُمق الفكرة لم يكن يوما عيبا في الأدب ، بل كان على الدوام مما يُمدح به الأديب ناثرًا وشاعرا ؛ إلا إذا جئنا إلى العقاد صار مذمّة !!

ولكي أنفي هذه التهمة سأبدأ بقصائد فيها سهولة تتمنّع بالإبداع ، لا بالتعقيد ، وتتمتّع بجِدّة الفكرة وافتراعها ، لا بولوجها في مسارب العقل البعيدة ومتاهاته الفلسفيّة !

فها هو في قصيدته التي بعنوان (بعد عام) ، يكتب قصيدة غزلية في ديوانه (وهج الظهيرة) ، هي من جنس الشعر المغنَّى رقة ولطفا ، فيقول :

كاد يمضي العام يا حلو التثنّي ** أو تولَّى

ما اقتربنا منك إلا بالتمنّي ** ليس إلا

**

مذ عرفناك عرفنا كل حُسْنِ ** وعذابِ

لهبٌ في القلب ، فردوسٌ لعيني ** في اقترابي

**

غير أنّا لا نرى الفردوس إلا ** رَسْمَ راسمْ

وشربنا الجحيم مُهلا ** شُربَ هائم

**

لا تلمني أن قلبي خانني ** أو عشقتُك

لم يكن منّيَ إلا أنني ** قد رأيتُك

**

كان في الدنيا جمالٌ لا يُعدّ ** ثم لُحْتا

فعددنا الحسن طُرًّا ** هو أنتا

**

أين حسنٌ كان يجلوه النهارُ ** هل لبستَه ؟

هل ورثتَ الصبحَ والصبح منارُ ** أم قتلتَه ؟

**

تتهادى (ويح قلبي) في خطاك ** لستَ تدري

لستَ تدري أيُّ نار إذ أراك ** ضِمن صدري

**

ضاحكا يفترُّ نور البِشْرِ عنكا ** كيف تعلم

أن قلبا دون قِيد الرمح منكا ** قد تحطّم

(إلى أن يقول فيها :)

نحن قومٌ يا حبيبي قد خُلقنا ** للجمالِ

إن أجاد الله في الخلق أجدنا ** في المقالِ

**

صاغنا الله لشدوٍ وغناءٍ ** حيث كنا

ونهانا عن جمود وجفاءٍ ** فانتهينا

**

قال : غَنّوا وصِفُوا خلقي البديعْ **في القصيدِ

واطلبوا أجركمُ عند الربيع ** والخدودِ

**

ليس يُعلي آيَ فنّي غيرُكمْ ** حين تعلو

شكرها منكم ومنها شكركم ** ذاك عدلُ

**

ما لكم أجرٌ من الدنيا سواهُ ** فاغنموهُ

يا ذوي الحسنِ بذا أَوصَى الإلهُ ** فاسمعوهُ

**

قد وفَينا دَينَنا ، فاوفوا الديونا ** هل رضيتم؟

وشَدَوْنا فتعالَوا أسعدونا ** لا شقيتم

**

ما أتمَّ العيشَ لو تصفو القوافي ** والغرامُ

شاعرٌ يشدو ، ومحبوبٌ يوافي ** والسلامُ

وله قصيدة أخرى في الغزل ، تقطر شهدا وتنطق لطفا وتدق وصفا ، بعنوان (إلى الشفاه لا إلى الآذان) ، يقول فيها :

فيمَ أروي لك شعري ** أنا أدري ، أنا أدري

**

أنا أدري يا فتاتي ** حيث أُلقي بالأغاني

إن شعري سَمّعتْه ** شفتان .. شفتانِ

ها هنا سِرْبٌ إلى القلـ ** ـبِ الذي أعنيه دان

**

رفَّ شعري حيث رفّت ** بالأماني قُبلاتي

وتصفّحتُ صداهُ ** قبسًا في الوجنات

هو من ثغر فتاتي ** وإلى ثغر فتاتي

**

فيم تسعى رحلتي بيـ ** ـن المعاني وتطولُ

ها هنا الشعرُ وموحي الـ **ـشعر يُصغي ويقولُ

كل إصغاءٍ لقلبي ** غير هذين فضولُ

وفي قصيدة أخرى في (النوم) ، أبدع فيها أيما إبداع ، واخترع في النوم شعرا لم يُسبق إلى مثله في الأدب العربي كله !

يقول :

أيا ملكا عرشُه في العيو ** نِ يُظلِّلُ دنيا الكرى بالجناحْ

ضممتُ عليك جفونا ترا ** كَ أبرَّ بها من وجوه الملاحْ

تُلِمُّ بأهدابها في الظلا ** مِ فتنسى جبينَ الزمان الوَقاح

وتُدني إلينا بَعيد الرجا ** ءِ إذا الدهر ماطلنا بالسماح

أراك خُلقتَ لنا هدنةً ** تُعاودنا في مجال الكفاح

إذا ما رفعنا سلاح الجِلا ** دِ ، تُلِمُّ ، فنُلقي إليك السلاح

فتجمع بين الظِّباء الضعا ** فِ وبين لُيوث الشَّرى في وشاح

ويجفو الحبيبُ فتؤتي المشو ** قَ من لذّة الوصل ما لا يُتاح

وتحرس أجسامنا في المها ** دِ ، وتُخلي لأرواحهن السراح

تحُلّقُ بالروح بين النجوم ** مؤتلقاتٍ وبين البطاح

وتبعث طيفَ الزمان القد ** يمِ قد نام في لحده واستراح

وتسبق بالحالمين الزما ** نَ إلى زمنٍ سرُّه لا يُباح

كأن الرُّقادَ أبٌ مشفقٌ ** يُعلّلُ طفلا أطال النواح

يُلقّيه تمثال زُهر النجو ** مِ وكان له في النجوم اقتراح

أمانيَّ يحظى بهن النيا ** مُ ، وجِدُّ الحياة شبيهُ المزاح

ولو رام يسعى إليها امرؤٌ ** تَقضّى به الدهورُ دون نجاح

إذا كان عيشُ الفتى لا يدو ** مُ ، فهزلُ المنام كجِدّ الصباح

ومن أشهر قصائد العقاد ومختاره : قصيدته (يوم الظنون) ، في ديوانه (أشجان ليل) ، يقول فيها :

يومَ الظنون صدعتُ فيك تجلّدي ** وحملتُ فيك الضيم مغلولَ اليدِ

وبكيتُ كالطفل الذليل أنا الذي ** ما لان في صعب الحوادث مِقْوَدِي

وغُصِصْتُ بالماء الذي اعتدتُه ** للريّ في قفر الحياة المجهِد

لاقيتُ أهوالَ الشدائد كلَّها ** حتى طَغَتْ فلقيتُ ما لم أعهدِ

نارَ الجحيم إليَّ[1] غيرَ ذميمةٍ ** وخذي إليك مصارعي في مرقدي

حيرانَ أنظر في السماء وفي الثرى ** وأذوق طعم الموت غير مُصَرَّدِ

---

(١) أي : ابتعدي عني .

أَروَى وأَظمأَ عَذْبُ ما أنا شاربٌ ** في حالتيَّ نقيعُ سُمّ الأسود[1]

وأُجيل في الليل البهيم خواطري ** لا شارقٌ فيه ولا من مسعد

وتعيد لي الذكرات سالفَ صبوتي ** شوهاءَ كاشرةً كما لم أشهد

مُسخت شمائلُها وبُدّلَ سمتها ** وبدت بوسم في السعير مخلَّد

يا صبوة الأمس التي سَعِدتْ بها ** روحي ، وليت شقيَّها لم يسعد

وعرفت منها وجهَ أصبحَ ناضرٍ ** ورشفتُ منها ثغر ألعسَ أغيد

سُومحت بل جوزيت كيف وَعَيْتَ لي ** بالأمس فيك ضراوةَ الذئب الصدي

سومحت بل جوزيت كيف طويتَ لي ** زُرقَ الأسنة في الإهاب الأملد

أمسيتَ حربي في الظلام وطالما ** جلّيتَ لي وجه الظلام المُربِد

ورجعتُ أهرب من لقاك وطالما ** ألقيتُ عندك في الشدائد مقصدي

ما كان من شيءٍ يزيد تَنعُّمي ** إلا يزيدُ اليوم فيك تَلدُّدي

أوّاهُ مِن أمسي ومن يومي معًا ** والويل من طول التردد في غد

أهب الخلود كرامةً لمبشِّري ** أنْ ليس يومي في العذاب بسرمد

وأبيع حظي في الحياة بساعةٍ ** أنسى بها عمري كأن لم أولد

وأسوم مرعى العيش غير مزوَّدٍ ** وأرود روضَ الحسن غيرَ مقيد

ومن قصائد العقاد التي استطاع فيها أن يبرز مذهب مدرسته في اختراع موضوعات الشعر وسهولة العبارات قصيدته (يوم ميلادي) ، وهي التي يقول فيها :

يوم ميلادي تقدم ... وتأخر .. وتكلّم

لا تقل لي قبل عام ... كيف كنا ، أنا أعلمْ

لا تقل لي بعد عمري... كيف نمسي ، لستَ تعلم

---

(١) الأسود هو الثعبان .

غاية الأمر أظانـ ... ينُ، وبعض الظن يأثم

سوف نمسي مثل ما كنـ ... ـا ، ولم نولد ونفطم

إن يكن ذلك شيئًا ... لستُ بعد الموت أُعدم

أو يكن ليس بشيء ... أتُرى (لا شيء) يندم؟

أية الحالين قل لي ... بعد طول العمر أسلم؟!

تظلم الموت إذا قلـ ... ت ظلومٌ ليس يرحم

نحن لا بالموت أعطينا ... ولا بالموت نُحرم

من يعد يومًا كما كا ... ن فقد تمّ وتمّم

صفقة الأعمار فيها ... قلة الخسران مغنم

ومن عيون قصائد العقاد قصيدة (كلماتي) ، التي يمتدح بها كلماته ، وهي في ديوانه (هدية الكروان) ! وعي قصيدة طويلة ، لولا واجب الاختصار لسردتها كاملة ، ومن أراد مسردها كاملا ، فعليه بالديوان المذكور ، أو في مجموع ديوانه (١/ ٥١١-٥٠٨) .

يقول فيها :

كلماتي كلماتي ** صَدَق الوعدُ فهاتي

هل معيني : وحيُك الصا ** دقُ ، أو وحي اللغات

أنا أَسْتأْدِيكِ[1] ما لم ** تُبلِّغِيه بأداةِ

من معانٍ تتعالى ** عن لسانٍ ولهاةِ

فاسألي الأرباب عن تـ ** ـلك المعاني الخالدات

أو سلي الصمت ، فكم صمـ ** ـتٍ له علم الثقات

ينتهي شأو الأحاد ** يثِ إليه والرواة

---

(١) استأداه الشيءَ : طلب منه أداءه .

وبه لاذ هداةٌ ** عرفوا وحي النجاة

**

انظري يا كلماتي ** وأَصيخي في أناة

ما ضياءٌ ثَمّ في الأفْـ ** ـقِ وفي كل الجهات

لا من الأرض ولا من ** دارةِ الأفلاك آتِ

لا تراه غير عيني ** وهو ملءُ الكائنات

هل يرى الدنيا امرؤٌ لم ** يرَ منه قبسات

كلماتي أن في وا ** دٍ من التيه شتات

اسألي الأرباب عنه ** أو سلي الصمت وهاتي

**

كلماتي ما تقولـ ** ـين إذن يا كلماتي

ما نعيمٌ يمنح الكـ ** ـفَّ غذاء المهجات

تقصر الألباب عنه ** وهو بعض اللمسات

في يدي أدعوه خصرا ** تارة أو زهرات

في فمي أدعوه ثغرا ** تارة أو قبلات

وفؤادي ما اسم ما فيـ ** ـه إذن يا كلماتي

اسألي الأرباب عنه ** أو سلي الصمت وهاتي

**

نشوات تلك ؟ لا بل ** تلك فوق النشوات

يقظات تلك ؟ لا بل ** تلك غير اليقظات

بلغت منها مداها ** وارتفعت مرتفعات

تَسْلِسُ اليقظةُ للوصـ ** ـف وتُصغي وتؤاتي

فإذا جازت مداها ** لزمتْ صمتَ السبات

كلماتي ! ما تقوليـ **ـن إذن يا كلماتي

اسألي الأرباب عنه ** أو سلي الصمت وهاتي

**

لحظةٌ تمنح قلبي ** كل هاتيك الهبات

لحظة ترفع عمري ** حقبا متصلات

رب عمر طال بالرفـ **ـعةِ لا بالسنوات

لحظةٌ ، لا بل خلودٌ ** لاح بين اللحظات

كالسماوات تراها ** من شِباك الحلقات

رُبّ آبادٍ تجلّت ** من كُوًى مختلفات

وقُطيرات زمان ** ملأتْ كأسَ الحياة

سكرةٌ تُغشي وأخرى ** تغتلي بالصحوات

هكذا بتنا رفيقيـ **ـنِ لَزيمَي لثمات

غائبٌ غافٍ ، وصاح ** لحفيف الهمسات

كلماتي ! ما تقوليـ **ـن إذن يا كلماتي

اسألي الأرباب عنه ** أو سلي الصمت وهاتي

ومن روائه شعر العقاد قصيدة (الكروان) ، المنشورة في ديوانه (يقظة صباح) ، والتي مطلعها :

هل يسمعون سوى صوت الكروان *** صوتا يرفّ في الهزيع الثاني

من كل سارٍ في الظلام كأنه *** بعض الظلام تضله العينان

(إلى أن يقول فيها :)

يا محيي الليل البهيم تهجدا *** والطير آويةٌ إلى الأغصان

يحدو الكواكب وهو أخفى موضعًا *** من نابغ في غمرة النسيان

قل يا شبيه النابغين إذا دعوا *** والجهل يضرب حولهم بجران

كم صيحة لك في الظلام كأنها *** دقات صدرٍ للدّجُنّة حان

هن اللغات ولا لغاتِ سوى التي *** رفعت بهن عقيرةُ الوجدان

إن لم تقيدها الحروف فإنها *** كالوحي ناطقة بكل لسان

أغنى الكلامِ عن المقاطع واللُّغى[1] *** بثُّ الحزين وفرحة الجذلان

***

إني لأسمع منك إذ ناديتني *** معنًى يقصّر عنه كلُّ بيان

لا عيب أنك في لسانك أعجمٌ *** إذ كنتَ ناطقَ مهجة وجنان

لا يسمعون بسر بين جنوبهم *** صمًّا وإن كانوا ذوي آذان

***

يا ساليا يشكو ويصدح وحده *** علِّمْ سميرك راحة السلوان

جهلٌ لَعَمْرُك أن يُطوِّعَ صاحبًا *** من جاهرتْهُ النفسُ بالعصيان[2]

إملكْ هواك ، فإن أطقتَ فلُمْ فتًى *** خان الوداد ، فلستَ بالخوّان

ومن مختار شعره الذي استحسنه النقاد له رثاؤه للأديبة مي زيادة ، وهي قصيدة بعنوان (آه من التراب) منشورة في ديوانه (أعاصير مغرب) .

ومن الديوان نفسه (أعاصير مغرب) ، بل هي آخر قصائده فيه ، أشاد النقاد بقصيدة العقاد التي يرثي بها كلبه (بيجو) ، وعنوان القصيدة باسمه (بيجو) .

---

(١) اللغى : جمع لغة ، كاللغات .

(٢) المعنى : من عجز عن نفسه ، فعصته نفسه فيما فيه مضرته ، كيف يمكنه أن يجعل صديقه مطواعا له لا يعصيه .

وهاتان القصيدتان مما اتفق على استحسانها الناقدان الكبيران : سيد قطب في كتابه (كتب وشخصيات) ، وفاروق شوشة في (مختارات من شعر العقاد) .

الحلقةُ الرابعة عشرةَ من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين :

(قال ابن أبي حاتم) قلت للشيخ : تسامع رواة الشعر وشُداته عن مسائلي هذه ، وصاروا يحُمّلون البريد رسائلَهم إليّ ، يرغبون أن أسألكم شيخي عن شعراء عرفوهم ، فأحبوا أن يقفوا على قولكم فيهم .

فقال الشيخ : مِن مثل مَن ؟

فقلت : أرسل أحدهم يسأل عمن قرأت له شعرا من شعراء المغرب المحدثين ؟

فقال : يا بني ، كل ابن وطن له نزعةٌ تعصب لوطنه (تختفي وتظهر ، وترقّ وتغلظ) ؛ إلا ما شاء ربك ! وكل ابن وطن من هؤلاء يظن أنه يجب أن يكون رجالات بلده لهم قصب السبق في كل مفخرة وفي كل علم ، يأبون أن يكون فيهم المصلِّي (المصلي هو الثاني في سباق الخيل) . وهذا لا يلزم ، بل لا يصح ؛ لأن كل أهل قطر سيدعون هذه الدعوى لأهل بلدهم ، فتتهاتر بذلك الدعاوى وتتكاذب المزاعم ، فتتساقط كلها ؛ إلا ما قام على إثباته شيءٌ آخر سوى الدعاوى ، وهو البينات .

أما ما سألت عنه من شعراء المغرب المحدثين والمعاصرين : فلا أعرف فيهم فحلا ، بل لا أعرف فيهم مجيدا .

وقد قرأت بعض نتاج بعض شعرائهم كأبي بكر المريني (ت١٤٠١هـ - ١٩٨٠م) ، ومحمد حبيب الفرقاني ، والدكتور حسن الأمراني ، وعبد الكريم الطبال ، وعز الدين الإدريسي ، وعبد السلام بو حجر (الذي فاز بجائزة يُزعم أنها دولية بالمرتبة الأولى لأفضل قصيدة عن القدس ، باسم : مقام القدس العالي) .

كما أني كنت قد مررت على بعض مؤرخي أدبائهم وشعرائهم ، ككتاب (النبوغ

المغربي في الأدب العربي) للأستاذ الكبير عبد الله كَنّون ، و(باقات من شعر المغرب العربي) للدكتور مسعد العطوي ، وغيرهما من بحوث ومقالات = فما وجدت للمحدثين من المغاربة في الشعر شيئًا يقوم على ساق ، ولذلك ما خرج منه عن المغرب إلا ما لا يُذكر في ساحات الشعر والأسواق ، ولا صدحت بأشعارهم عواصم الشعر في مصر والشام والعراق ، بل لم تتردّد قصائدهم فيما تبقّى من قباب عكاظ ومنابر ذي المجاز من أسواق الشعر في نجد والحجاز .

وشعراء المغرب في محاولتهم التجديد في الشعر لا استطاعوا أن يُسمعوا أساتذة الحداثة في أوربا مِن فوقهم ، ولا ألقى لهم حرس القديم بالاً من تحتهم في موريتانيا !!

وأعلم أن بعضهم لن يرضيه هذا القول ، ولكنه الحق الظاهر عندي ، ومن أباه فليبرز دليله من القصائد المذهبة والأشعار المطبوعة والأبيات المخترعة التي تدل على قريحة مُجيدة وخيال واسع وعاطفة جياشة .

(قال ابن أبي حاتم) فإن هبطنا من المغرب إلى موريتانيا ، بلد اللغة والشعراء ، فمن في شعرائهم فحل عندك ؟

فقال : لم أطلع على شيء من شعرهم ؛ إلا ما كتبه الدكتور محمد المختار ولد أباه في كتابه (الشعر والشعراء في موريتانيا) ، وكنت قد استمعت مرارا لبعض من شعرهم ينشده لنا بعض الشيوخ استحسانا له .

وعلماء موريتانيا كما ذكرتَ أهل علم باللغة نحوها وصرفها ، وهم مشهورون بقوة الحافظة ، وهذا منح شعراءهم ثروة لغوية كبيرة وتصرفا في الألفاظ ليس لغيرهم .

مع ذلك كله : فالإبداع فيهم قليل ، وعامة شعرهم تقليد لشعراء العصور الأولى ، وتكرار لأفكاره ومعانيه . وعزز ذلك فيهم : حياة بدوية تشبه حياة القدماء ، وحافظة غلوا فيها على حساب الخيال ، فقل فيهم التجديد والاختراع في الشعر .

وهذا الدكتور محمد المختار ولد أباه نفسه ، يقسم شعراء بلده إلى ثلاثة أقسام ، هم :

- شعراء البلاغة والبديع .
- وأنصار الشعر الجاهلي .
- مجددون (وأقصى ما يبلغوه في التجديد أن يصلوا لما يشبه مدرسة الإحياء)

وقد صدق في ذلك ، فليس في النماذج التي يذكرها إلا التقليد المحض ، أو العناية المتكلفة بالبديع وبالصنعة البلاغية (لا بالبلاغة) ، وأن عامة شعرهم قليل الإبداع جاف المشاعر ضيق الخيال ؛ إلا في البيت هنا والبيتين هناك .

أما المجددون من شعراء موريتانيا الذين ذكرهم الدكتور من أمثال : سيدي محمد بن الشيخ سيدي ، وسيدي بابا ، وأبي مدين بن الشيخ أحمد ، وحرمة بن عبد الجليل ، وأبي بكر الفاضل ، وأمحمد بن أحمد يوره = فلم أجدهم يختلفون كثيرا عمن سبقهم ، إلا في الأشكال ، وفي بعض النقدات للمنهجين الآخرين .

ومما يلفت الانتباه أن عامة ناظميهم وشعرائهم كانوا علماء بالفقه وبعلوم الشريعة ، وكلنا يعلم ما يوصم به شعراء الفقهاء ، من قلة شعرهم الجيد (وليس انعدامه) ، هذا ونحن نتحدث عن الرعيل الأول من الفقهاء ، فكيف بهم في الخلف المتأخر الذي تسأل عنه ؟!

وقد كاد الدكتور محمد المختار ولد أباه أن يعترف بهذه الحقيقة ، عندما عقد فصلا بعنوان (مكانة هذا الشعر وقيمته) ، ليقول في نهايته : إن مقاييس الاستحسان تختلف ، وكأنه يقول لنا من خلال هذا التقرير : إنه لا يجد عند النقاد المعاصرين (منذ عصر مدرسة الإحياء إلى اليوم) مقياسا يمكن أن يستحسن شعر شعراء بلده ، وأنه على النقاد أن يعترفوا لأهل بلده بمقياسهم الخاص في الاستحسان ! (فانظر الكتاب المذكور من ص ٦٥ -٧٣- ٧٧) .

(قال ابن أبي حاتم) : يا شيخي ! هل تحب أن لا أنشر عنك هذا القول ؟! فإني لا آمن عليك من هاجيهم ، يكتب فيك ألفية ؟!!

فقال الشيخ (وقد ضحك) : لقد تعرضت لما هو أولى بالخطر من هذا ، فما التفتّ

لذلك ، ولا نظرت إلا إلى أمانة العلم . كما أني (يا بُني) ما وجدت لعداء الباطل (مهما اشتدّ) أثرًا حقيقيا على نفسي ، بل هو مما زادني جرأة ، حتى لقد صرت ألقى أذاه ضاحكا مستبشرا ، وكأنني أقول له : كنت في انتظارك ! وربما استبطأته ، فيأتيني على مهل منتفخا كأنه جبل ، ثم يمرّ بي مر السحاب !!

فلا أدري ! أعدم مبالاتي : هي من فرط شجاعة ؟! أم هي من موت إحساس ، على حد قول المتنبي :

رَماني الدَهرُ بِالأَرزاءِ حتى *** فُؤادي في غِشاءٍ مِن نِبالِ

فَصِرتُ إِذا أَصابَتني سِهامٌ *** تَكَسَّرَتِ النِّصالُ على النصالِ

الحلقةُ السادسة عشرةَ من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين :

(قال ابن أبي حاتم) : ثم إني غدوت إليه ، وهو في كهف جدرانه من الكتب ، وأرضه مفروشة بالكتب ، وهو مكون من حجر ثلاث ، لا تكاد تجد فيها إلا ممرا ضيقا ؛ لأن تلال الكتب تملأ الأرض ، بعد أن امتلأت جدران ذلك الكهف المكتبي !

وهذا الكهف هو عُلّية في سطح عمارة ، وكأنها كهف في قمة جبل : صفاء هواء ، وهدوءا ؛ فلا تسمع إلا همس الريح ، أو زميم ثلاجة المياه يظهر ويختفي ، وكأنك تجلس في مزرعة ، يتتابك من أحد حيطانها البعيدة (من حين لآخر) زميم كور زنابير (بيت الدبابير) .

فدخلت وهو يجلس في أحد تلك الحجر ، يلبس نظارته ، ويطالع كتابا .

فسلمت ، فرد بهمهمة ، وأشار إلي بالجلوس . فجلست ساكتا ، حتى انتهى من فصل كان يقرأ فيه ، رفع رأسه ، ونظر إلي . وهذه إشارة منه لبدء الحديث ، فإن لم أبادر ، عاد ليكمل قراءته .

فقلت له : شيخي ، أود أن أسألك عن المازني ، ثالث ثلاثة في مدرسة الديوان ، مع شكري والعقاد : أين هو من فحولة الشعر ؟

فقال : ليس فحلا ، وإن كان له مقطعات حسنة .

فقلت له : يستحسنون من شعره قصيدة طويلة ، بعنوان (الشاعر المحتضر) ، ألا تجعله من الفحول ؟

فقال : لا تجعله منهم ، فهي وإن تضمنت أبياتا جيدة ، لكنها تضمنت أيضا أبياتا خالية من الإجادة . ثم تذكر شرطنا في الفحول ، لتعلم أنها لو كانت كلها جيدة ، لما استحق المازني بها أن يُلحق بالفحول ، لا من جهة أنها لا تبلغ الذروة ، ولا من جهة عدم فشو هذا

القدر من الجودة في شعره .

فقلت : فماذا تختار من شعره غير قصيدة المشار إليها آنفا ؟

قال : قوله في قصيدة بعنوان (وقفة في الحياة) :

وقفت على الجسر الذي يعبر الورى ... إلى الموت ، والأشباح حوليَ تخطُرُ

تحدثني نفسي بأنيَ هالكٌ ... وتوهمني الآمالُ أنيَ خالدُ

ويهمس في أذني العزاء : أن اتئد ... فإن بُعيد الموت حظُّك أوفرُ

فأقدمتُ هيّابا ، وأحجمت حائرًا ... يدافعني عن نفسه ما يراودُ

وله قصيدة يصف فيها معاناة الشاعر ، وتلذّذ الناس بمعاناته ، بعنوان (عزاء الشعراء) ، يقول فيها :

سيعرقني يأسي ويغلبني ضنى ... يَغُذُّ بنفسي للبوار ويوجفُ

فلا تنفسوا شعرًا على مُفَوَّفًا ... له (لو علمتم) جانبٌ متخوَّفُ

كما نظمت هذي الرياح غمائما ... لها من غروب الشمس وشيٌ مطرَّف

يهددها مما يضم ممزِّق ... ومما يوشيها مذيب ومتلف

لنا الله من قوم نذيب نفوسَنا ... ويجني سوانا ما نشور ونقطف

ويصدُر عنا الناسُ ريّا قلوبهُم ... ونحن عطاش بينهم نتلهّف

نذوق شقاء العيش دون نعيمه ... على أننا بالعيش أدرى وأعرف

ولكنه ما أخطأتنا لذاذةٌ ... إذا بلغ السُّؤْلَ القريضُ المثقَّفُ

إذا هو سَرَّى عن لهيف مفجَّعٍ ... وآنس قلبًا موحشًا يتشوَّف

فما نحفل الدنيا إذا جلّ ظلمها .. ونحن من الأيام والعيش نُنصِفُ

ثم قال الشيخ : على أن المازني قد أُخذ بسرقات أدبية من الأدب الأجنبي ، وقد نبه على ذلك عدد من الأدباء كعبد الرحمن شكري ومحمد علي حماد والناقد السوداني معاوية محمد نور وغيرهم . وهذا مما يبين عن شعور بالضعف ، ويُظهر حقيقة كثير من

دعوات التجديد إذا لم يكن عند أصحابها ما يؤهلهم للتجديد : أنهم سيجدون في الإغارة على جهود الآخرين وأفكارهم طريقا سهلا للإقناع بتوفر تلك الأهلية فيهم .

الحلقةُ السابعة عشرةَ من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين :

(قال ابن أبي حاتم) : بعدما رأيت الاضطراب في تقويم الشعر ، والمعارضة بغير معرفة، وفشو استحسان ما لا يستحق الاستحسان ، قلت للشيخ : ما الذي يخدع الناس في شعر الشاعر فيظنونه فحلا ، وهو ليس بفحل ؟

فقال : أما في زماننا ، فهي أمور كثيرة بالغة السقوط :

- فمنهم من تخدعه طنطنة الألفاظ وقرقعتها .
- ومنهم من يغشه الغريب والحوشي .
- ومنهم من يستحلي التطويل والإطناب ، فهو يظن (المعلقات) هي القصيدة الطويلة، وأن هذا هو سبب اختيارها من الشعر !
- ومنهم من تنطلي عليه المبالغات والغلو في التشبيهات والإفراط في التعابير عموما .
- ومنهم من وجدته لا يفرق بين الخطبة الحماسية المجلجلة والقصيدة ، فتعجبة الخطبة المنظومة شعرا ! والفرق بينهما هو الفرق بين الشعر والنظم .
- ومنهم من تعجبه القصيدة لنبل الهدف وموقع الكلام في حينه : في مناهضته محتلا ، وفي تحفيزه على مقاومة معتدي ، ونحو ذلك . لكن بعد أن ينتهي الحدث ، لا يبقى لهذا الكلام طعم ولا لون ؛ لأنه لم يكن شعرا ، وإنما كان كلمة حق شجاعة ، قد تغني عنها أو تقوم بأثرها : الإشارةُ ، والفعل ! فلم يكن استحسانها لبلاغتها ، وإنما لحقانيتها وشجاعتها في القيام في وجه الباطل .

وغير ذلك .

فقلت : وماذا يجمع هذه الأسباب ؟

فقال : يجمعها أمران :

الأول : الهوى والعصبية : كالعصبية لبلد أو لقبيلة ، أو عليهما ، أو الحمية للقديم ضد الحديث ، أو للحديث ضد القديم .. ونحو ذلك من الأهواء التي لا تمت للعدل بشيء .

الثاني : ضعف الذائقة الأدبية ، أو انعدامها .

وضعف الذائقة ينتج من أمرين :

- نقص قريحة وموهبة .
- وعدم معرفة بمقاييس جمال الكلام .

فقلت : وكيف تُنمى الموهبة ؟ وكيف تقوى الذائقة ؟

فقال : يظن أكثر الناس أن الذائقة تنمو بتعلم صناعة النحو والصرف والبلاغة ، ويظن آخرون أنها تنمو بمجرد حفظ أشعار العرب ! ولا هذا ولا ذاك بالذي يكفي لتنمية الذائقة ، وإنما تنمو الذائقة بأمر واحد ، وتساعده أمور عديدة .

فقلت له راجيا : أفدني ! فإني إلى ذلك من الراغبين .

فقال : هو تذوُّقُ الكلام المختار من كلام العرب (شعرا ونثرا) ، لتعرف أسباب اختياره عند سادة الذوّاقة من أئمة الأدب .

فعلوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة : صناعات ، والكلام الأدبي : فن ومهارة ، ومن يتعلم الصناعة كمن يتعلم نظريا كيف يقود سيارة ، لكنه ما قاد سيارة قط ، فلن يستطيع قيادتها قط بغير ممارسة عمل .

وهذا مما نبه عليه الجرجاني في دلائل الإعجاز .

ورب رجل ما قرأ كيف تقاد سيارة قط ، لكنه جالس من يقودها ، وعلّمه كيف يقودها عمليا ، فيصبح ماهرا في قيادتها دون تعليم نظري .

فقلت : وما هي كيفية التذوق ؟ ما دام حفظ مختار الكلام ليس منها ، رغم أن من النقاد من كان يذكر الحفظ وسيلة لتنمية الذائقة ، كأبي هلال العسكري وغيره ؟!

فقال : أما الحفظ فهو نقش لصورة الكلام في الصدر ، لا علاقة له بفهم الكلام

المحفوظ ، فكم من حافظ كلاما لا يفهم معنى ما حفظ ؛ فكيف بإدراكه عميق معانيه ومواطن دقته وملامح جماله ؟!

أما كيفية التذوق : فيجب عليك أن تدرك أولا : أنه رياضة وتمرين ، فلن تكون من أول ممارستك هذا التمرين محسنا لما سوف تحسنه بعد سنة من الانكباب عليه . وثانيا : هو يقوم على إطالة التأمل في الكلام المنتقى المختار ، بدءا بفهم المعنى بكل دقة ، وانطلاقا من ملاحظة علاقة المعنى باللفظ : دقة تعبير وعمق معنى ، وعلاقة اللفظ والمعنى بنفسية الشاعر وببيئته وبثقافة عصره .

ففي اللفظ : هل كان اختيار الشاعر للفظ موفقا ؟ بالنظر للمعنى ، وبالنظر لجانب النظر للمعنى الذي تحكمه نفسية الشاعر وبيئته وثقافة عصره ؛ إذ للمعنى الواحد جوانب نظر كثيرة ؟ أم كان غير موفق في ذلك ؟

بل يجب أن ندقق حتى إذا كان موفقا : هل هناك ما هو أوفق مما وُفّق إليه ؟ فالكلام حسن .. وأحسن ، وجيد .. وأجود .

وفي المعنى : هل استطاع الشاعر أن يعبر عن نفسه حتى أوصلنا لمشاعره بكل دقة ، مع إيصالنا لمراده المعنوي بكل دقة ؟

- أم كان جياش المشاعر لكنه أبدى لنا جمود المشاعر ؛ بسبب نقص الموهبة أو المعرفة ؟

- أم كانت قد استخفت به السعادة فبدى لنا من شعره أنه لا يبالي بما ناله من خير ؛ بسبب انحصاره في التقليد وعجزه عن الإبداع ونقص آفاق الخيال عنده ؟

- أم كان يريد معنى فأنطقته القريحة الضعيفة بمعنى آخر ، ليأتينا من يؤول كلامه بخلاف ظاهره ، حتى نفهم مراده ؟

ونحو ذلك من أنواع الخلل في الكلام ، التي تهبط به عن عالي الكلام ومختاره .

ولي في التذوق الأدبي مقال قديم يحسن الوقوف عليه ، بعنوان (التذوّق الأدبيّ وأثرُ

غيابهِ علىَ العلومِ الشرعيةِ) ، منشور في صحيفة المدينة : http://www.al-madina.com/node/499291

فقلت له : وما هي أهم كتب الاختيار الأدبي التي على طالب الذائقة الرجوع إليها وإجراء عملية التذوق عليها ؟

فقال : أما وقد سألت عن الأهم ، فهذا ممكن ، وإلا فهي كثيرة جدا .

أما في الشعر : فأفضل ما يُبدأ به (الحماسة) لأبي تمام ، والبداية بها أنفع من (المفضليات) و(الأصمعيات) . ثم ببقية كتب الاختيار ، كالذي تجده في حماسة البحتري ، والحماسة البصرية ، وما يجيئك في (عيون الأخبار) لابن قتيبة ، وما يستحسنه في (الشعر والشعراء) له ، ومختارات أبي علي القالي في (الأمالي) ، ونحو هذا الصنف .

ومن كتب الاختيار الشعري الحديثة أنصح بالكتب التالية :

(مجموعة المعاني) تحقيق عبد السلام هارون ، و(موسوعة الشعر العربي) – صدر منها أربعة مجلدات في الشعر الجاهلي ، ومجلد في المخضرمين – اختيار وشرح : مطاع صفدي وإيليا الحاوي ، وإشراف د/ خليل الحاوي ، وتصحيح وتدقيق : أحمد قدامة . وهذه الموسوعة مما يعين على التذوق جدا ؛ لأنها تبدأ بتعريف بالشاعر وبأسلوبه وبخصائص شعره ، ثم تقدم كل قصيدة بتعريف بمضمونها : موضوعا ونفسية ، ثم يأتي شرح الأبيات بلغة عصرية ، لا تُغفل التنبيه أحيانا على بلاغيات النص .

وأما في النثر : فكتب الجاحظ كلها ورسائله ، وكتب ابن قتيبة ، وكتب أبي حيان التوحيدي (كالبصائر والذخائر) و(الإمتاع والمؤانسة) و(مثالب الوزيرين) ونحوها .

فقلت له : فأين القرآن والسنة ؟!

فقال : يا بني ، لا يمكنك بلوغ القمم ، قبل المرور بسند الجبل بعد سفوحه .

فقلت : ذكرتم أن هناك أمورا معينة على التذوق ، فما هي ؟

فقال : تعلم علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة ، وقراءة كتب النقد الأدبي .

فقلت : وبماذا تنصح من كتب النقد الأدبي ؟

فقال : عندي أن أعمقها في كتب المتقدمين بعد ما تفرق في كلام الجاحظ في (البيان والتبين) خاصة ، وفي كلام ابن قتيبة وغيرهما : (الموازنة) للآمدي ، و(الوساطة) للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، وهما عندي أعمق وأدق وأدعى لتنمية الملكة من كتاب (نقد الشعر) لقدامة بن جعفر ، و(عيار الشعر) لابن طَبَاطَبَا ، و(الموشَّح) للمَرْزُبَاني .

الحلقةُ الثامنة عشرةَ من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين :

(قال ابن أبي حاتم) : قد رغب إلي السائلون أن تذكر قولك في شاعر الجزائر مفدي زكريا ؟

فقال : هو زكريا بن سليمان بن يحيى ، و(مفدي) لقب ، وليس اسمه . وقد أخطأ الأستاذ أحمد العلاونة في كتابه (ذيل الأعلام) عندما سماه (مفدي بن زكريا) ، (ت١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م) .

فقلت : وما ضبط (مفدي) ؟

فقال : ضبطها : بضم الميم وسكون الفاء وكسر الدال المخففة ، هكذا سمعته من عدد من أدباء الجزائر ومؤرخيها ومثقفيها ، وهكذا وجدته مضبوطا بالقلم في ديوانه (أمجادنا تتكلم) .

لكنه هو نفسه ذكر لقبه هذا في قصيدة ، فقال :

دع (مُفْدِي) هنا يناجي (المفَـدَّى) ... علّهُ بيننا ، فيسْطيعُ ردًّا

لكن البيت ينكسر وزنه بهذا الضبط ، فلعله حرك الفاء بالفتح أو الكسر ، وشدّد الدال (مفَدِّي) لضرورة الشعر .

وهو شاعر مناضل ، حارب الاستعمار الفرنسي ، وكان من أصوات النضال في المغرب العربي . وله عند الجزائريين مكانة كبيرة ، فهو صاحب نشيدهم الوطني ، الذي مطلعه :

قسما بالنازلات الماحقات

و الدماء الزاكيات الطاهرات

بل هو صاحب عدد من الأناشيد الوطنية في الجزائر كنشيد العلم ونشيد جيش التحرير

وغيرهما .

(قال ابن أبي حاتم) : فقلت له : فهل هو فحل الشعر ؟

فقال : لا ، ليس فحلا .

فقلت : فهل هو مجيد ؛ إذ لم يكن عندك فحلا ؟

فقال : له أبيات قليلة متفرقة جيدة ، ولم أجد له قصيدة عامتها جيدا ، بل هي أبيات مفرقة ، تدخل في معنى الإجادة . وإنما نال شعره ما نال من الشهرة والصيت والمكانة العالية لنبل مقاصده ولعظيم أثره في الثورة الجزائرية ولارتباطه بقصص فدائها ولكونه كان عظيم المحبة للجزائر صادق الوطنية . لكن شعره مثال نموذجي للشعر الذي هو من نمط الخطب الحماسية المجلجلة ، لكنها منظومة في وزن وقافية .

وهو مغرم بالمبالغات ، كما هي عادة الخطب الحماسية .

ومن ذلك استعماله لفظ الجلالة في مواطن عديدة فيما لا يليق استعماله فيه ، بقصد المبالغة في التعبير عن فكرته :

فاسمعه يقول في فاتحة (إلياذة الجزائر) :

جزائر يا مطلع المعجـــــــزات .. و يا حجة الله في الكائنـــات

و يابسمة الرب في أرضـــــه .. و يا وجهه الضاحك القسمات

ففي البيت الثاني من خَرْق الغلو الذي ترتقه المجازات ، ولكن يأبى رَتْقَه تعظيمُ الله وإجلاله كما ينبغي لجلال عظمته سبحانه .

ويقول في ديوانه (اللهيب المقدس) عن تونس :

وفي ساحة التحرير سُوق قوامها ... ضمائرُ قومٍ لا تُباع ولا تُشرى

تُوزَّعُ فيها للشهيد (شهادةٌ) ... بها (بصمات الرب) تطفح بالبُشرى

فهي شهادة ممهورة بأصبع الرب (تعالى وتقدس) ، فيها بصمته !!

وهذا معنى كرره مرات !!

والغريب أن الشاعر إباضي ، والإباضية من أبعد الناس عن التجسيم !

وقال في قصيدة أخرى عن التوقيع الرباني أيضا!! :

إن الجزائر في الوجود رسالة ... الشعب حررها وربّك وقّعا

فقال مرة أخرى عن لبنان :

أم لحن خلد تجلى فيه صانعه ... الله وقّعه والشعب نماهُ

ويقول في أخرى :

وللسماء قرارات موقعة ... بخاتم الرب تسري في قضاياه

ويقول في أخرى مادحا الحبيب بو رقيبة :

ما ضر تونس أن تكون رسالة ... وحبيب تونس أن يكون رسولا

سيان قالوا شاكر أم كافر ... أنا لا أضل إلى الإله سبيلا

وإذا ضللت فملء تونس وجهه ... طلق الجبين مهللا تهليلا

أنا من عرفت الله في قسماتها ... وعبدت في البلد الجميل جميلا

ومثل هذا النوع من الاختراع للتعابير (لو كان اختراعا) إنما منع الناس عنه حياؤهم من الله تعالى وإجلاله سبحانه ، لا العجز عنه !

ويقول أيضا في هذا الباب :

ويشرق الله في أعماق شاعرها ... فيغمر الشعر تقديسٌ وتخليدُ

ويقول أيضا عن الجزائر :

أحبها مثل حب الله أعبدها ... آمنت بالله لا كفرٌ ولا نزقُ

وهذا بيت ينقض عجزه صدره !!

ومن ممجوج كلامه قوله :

من يشتري الخلد ، إن الله بائعه ... فاستبشروا وأسرعوا فالبيع محدودُ

والربح (يا ناس) مضمون ومدّخرٌ ... في مصرف الله ، لا في البنك مرصود

ما أقبح هذه الاستعارة (مصرف الله) ، مع انتشار المعنى واشتهاره بعد أن سبق إليه قول الله تعالى { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ } إلى قوله سبحانه {فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} .

إن هذا النمط من المبالغة كثير في شعر الشاعر ، وإنما اخترت نماذج تأباها الذائقة وكمال الإيمان ، لتكون أوضح في المقصود !!

وهذه المبالغات هي من طبيعة الشعر الحماسي ، لكنها ليست من دلائل القدرة التعبيرية الفائقة ، القادرة على إيصال المعنى بعمق شديد ، وبعاطفة ملهبة ، دون حاجة إلى هذه الأساليب التي لا يلجأ الشاعر إليها إلا من ضعف أدبي أو من عدم اكتمال الحالة الشعرية لديه .

ومن قبيح مشاهد شعره قوله :

من جرح الشهيد عصرت شعري ... دما ، ومقاصل الشهداء سودُ

فمع ما هو معروف من زكاء دم الشهيد عند الله ، لكن استعماله لفظ (عصرت) هنا جعل المشهد هنا مشهد دم وقيح ! ولو اكتفى بـ(كتبت) ، أو حتى (نزفت) ، وأبعدنا عن مشهد الممرّض الذي يعصر الجرح ليأسوه = لكان أقرب للمعنى الطاهر الذي يريده .

أما بقية العجز (ومقاصل الشهداء سودُ) فهي لغو لا معنى له ؛ إلا قفلة البيت من أجل القافية !! إلا إن أراد المقابلة بين حمرة الدم وسواد المقصلة !! وهو احتمال أبعد عن البلاغة من عدمه !!

وهو كثير التكرار لصور عديدة ولمشاهد تاريخية ولرموز دينية كـ(عصا موسى) . وهو تكرار ينم عن فقر في الخيال ، يحوجه إلى تكرار الفكرة نفسها مرات عديدة .

وكلمة (لعلع) تكررت عنده كثيرا ، لتعبر عن غرامه باستحضار القرقعات الصوتية في شعره من الألفاظ والمعاني .

والعناية بالصوت في شعر مفدي زكريا قد قيدته دراسة جزائرية قدمت لنيل شهادة

الماستر في الآداب واللغة العربية ، بعنوان (من وحي الأطلس لمفدي زكريا : دراسة لسانية) ، للطالبة بلقاسمي خولة ، في جامعة محمد خيضر . وإن كانت الباحثة ذكرتها في سياق المدح لشعره ، لكنها تعكس طبيعة شعره كما ذكرتُها ، وهي الجنوح الشديد للمبالغات الحماسية في المعاني والألفاظ .

بل وجدته كرر قصيدة واحدة في ديوانين من دواوينه ! هي قصيدة (سنثأر للشعب) ، في ديوانه (اللهيب المقدس) :ص ١٧١ ، وديوانه (تحت ظلال الزيتون) : ٣٦ .

(قال ابن أبي حاتم) : فخشيت أن يسترسل الشيخ في الكلام عن معايب شعره ، فيُغضب الجزائريين ، كما كان قد أغضب من قبل الموريتانيين والمغاربة ! فقلت له : فما الذي تستحسنه من شعره :

فقال : مما أستلطفه قوله :

سلوا مهجة الأقدار : هل جرْسُها دقّا ... وهل خاطر الظلماء .. عن سرها انشقّا

وهل ليلة القدر التي طال عمرها ... تنفّس عنها فجرها يصدع الأفقا

وهل كف هذا الدهر عن غلوائه ... وأنصفنا هذا الزمان الذي عقا

إلى أن يقول فيها في تمجيد طلب الشهادة والفداء :

إذا الأرض يوما ضاق بالـحُرّ رحبُها ... فليس يضيق الرحب في القبة الزرقا

وإن أغلقوا باب العدالة في الثرى ... فأبواب عدل الله لا تعرف الغلقا

فقوله : «إذا الأرض ...القبة الزرقا» من بليغ الكلام ، معنى ورصفا .

ومن تعابيره البديعة التي سُبق إلى مثلها ، لكنه جاء بها في لفظ سهل ، وفي ضبط للمعنى ، قوله مادحا الحبيب بو رقيبة :

ليس يدري الغيبَ ؛ إلا أنه ... يسبق الغيب إذا ما أزمعا

ومن لطيف ما قال في بيان علاقة الجزائر بالأمة العربية :

نسبٌ بدنيا العُرْب زكّى غرسَه ... ألمٌ، فأورق دَوحُه وتفرّعا

سببٌ بأوتار القلوب عروقُه ... إن رنَّ هذا رنَّ ذاك مرجِّعا

ومن جميل شعره :

هو الشعر للإحساس أهدى من القطا ... وأبصر في بحر العواطف من (زَرْقا)

أرى الشعر بعد الوحي أكرم هابط ... من الملأ الأعلى ليرشدنا الطُّرْقا

ومن أناشيده المستحسنة قصيدته التي بعنوان (أنا ثائر) في ديوانه (اللهب المقدس) .

وكذلك في إلياذته أبيات متفرقة مستحسنة ، وكثير منها قرقعات حماسية (من غلو المعاني ولعلعات الأصوات) التي لا جديد فيها .

الحلقةُ التاسعة عشرةَ من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين :

(قال ابن أبي حاتم) وسألته عن الشاعر اليمني عبد الله البردوني (ت١٤٢٠هـ-١٩٩٩م) ، هل هو من الفحول ؟

فقال : نعم .. هو فحل .

فقلت : قلت سابقا إن الجزيرة العربية ليس فيها في العصر الحديث من بلغ مرتبة الفحولة ، وإن كان فيهم شعراء مجيدون ؟!

فقال : نعم ، أخطأت ، وقد استحضرت في نفسي دول الخليج فقط ، ولم يدر في خلدي اليمن عندما قلت ذاك الجواب .

فقلت : وما ضبط البردوني ، فقد استمعت إليه يُنطق بطرائق متعددة ؟

فقال : هو بفتح الباء والراء وضم الدال المشددة وسكون الواو وكسر النون ، وهي نسبة إلى اسم قريته (بَرَدُّون) ، هكذا ينطقها اليمنيون إلى اليوم ، وهكذا ضبطها ياقوت الحموي في معجم البلدان وغيره من المعاصرين ممن ألف في بلدان اليمن ومواضعه .

(قال ابن أبي حاتم) : ثم أردت أن يستدل لكلامه ، فقد بلغني أن بعض الناس ممن أنصف الشيخُ بلدانهم بما لم يعجبهم طعنوا في معرفته بالشعر ، فأردت أن يوجز لي أسباب فحولته ، فقلت له : هلا حدثتني عن البردوني بشي أوسع مما اعتدنا عليه من الإيجاز ، ولا يخرجنا عن التوسط في البيان ؟

فقال : لو كان غير هذا الشاعر لما قبلت الْتِماسَك ؛ فهو شاعر أُحبُّ الحديثَ عنه !

فقلت : الحمد لله أن لاقَى طلبي قبولا لدى الشيخ واستحسانا !

فقال الشيخ : أنت تعرف أن البردوني كان ضريرا ، حيث أضرّ منذ الخامسة من صباه . ولقد أكسبه هذا العمى عزلة تمكنه من طول التأمل وتدقيق الأفكار ، ليكتشف بذلك

تناقضات الواقع العميقة التي قد ألفها الناس حتى ما عادوا يرون فيها تناقضا . كما أن عماه هذا قد جعله ثائرا ، وازدادت ثورته حدة بهذا الواقع المزري الذي تعيشه أمته عامة ووطنه اليمن خاصة ، فَصَوَّرَ هذا الواقعَ بلغة ساخرة مقهورة ، تعكس حالة القهر التي كان يشعر بها .. والتي قد تصل في القليل من مفرداتها حد البذاءة اللفظية ، لكنها (مع ذلك) تَنُمُّ عن شاعرية فذة !

وقد استطاع الشاعر أن يتجاوز بإبداعه معضلة عدم قدرته على الإبصار : بأن يجعل صوره الشعرية ليست صورا مرئية في كثير من الأحيان ، بل يجعلها صورا مسموعة أو ملموسة أو مشمومة أو مذاقة . وله في هذا الجانب إبداعات كثيرة ، لعلي أستطيع إلقاء الضوء على بعضها .

وتميز شعر البردوني بالشعر الحواري ، فهو يدير حوارا عميقا وسريعا في أبيات شعره: مثل قصيدة (سندباد يمني في معهد التحقيق) وقصيدة (المحكوم عليه) وقصيدة (ساعة نقاش مع طالبة عنوان) وقصيدة (الهدهد السادس) وقصيدة (مأساة حارس الملك) .

والشاعر من الشعراء القلائل الذين استطاعوا أن يصنعوا من (المقابلة) و(الطِّباق) محسنا معنويا ، وأثبت أنهما أسلوبان يتجاوزان المحسنات اللفظية (البديع) إلى أنه يمكن أن يكونا منطلقا للخيال ولرسم صورة أُفُقية عريضة جدا : عرض الفرق بين الضدين المتناقضين :

فها هو يقول في قصيدة (هاتف وكاتب) :

من يخرجني مني ؟ ... البحثُ عن المدخلْ

الخفض إلى الأعلى ... الرفع إلى الأسفل

التوق إلى الأقسى ... الصد عن الأسهل

الموت إلى الأنهى ... البدء من الآصل .

وفيها يقول :

آتي الماضي : أدهى ... ماضي الآتي : أعضل

فلتكتب تحقيقا ... عن ماضي المستقبل

وفي هذه القصيدة يقول :

همس الأرض الوَجْعى ... فنٌّ عند الجدول

ولخفق البذر صدى ... في إبداع المشتل

ويختمها بإعلان عجز اللغات عن هواتف معانيه :

من يعطيني لغة ... أعلى ويدا أطول

لو لي صوت أعلى ... لو لي حبر أقتَل

اكتبْ عما تدري ... تَسْتَكْشِفْ ما تجهل

وبيته الأخير ينفع أن يكون من سوائر الأمثال :

اكْتُبْ عما تدري ... تَسْتَكْشِفْ ما تجهل

وهكذا هو يصنع من تناقضات الحياة نقده اللاذع للواقع ، ومنها يصنع تلك المقابلات المعنوية البديعة .

وعلى نفس المنوال ، يقول في مطلع قصيدة أخرى :

لماذا العدو القصيّ اقتربْ ؟ ... لأن القريب الحبيب اغتربْ

لأن الفراغ اشتهى الامتلاءَ ... بشيءٍ ، فجاء سوى المرتقَبْ

وفي هذه القصيدة التي بعنوان (أغنية من خشب) قال بيتيه الشهيرين ، مبينا سبب بقاء الجهل والتخلف ، رغم أن رموزه قد هلكت منذ قرون ، حيث صحح المعلومة : أن رموزه لم تمت ، وإنما الذي مات هو فقط بقايا منفعة قليلة كانت فيها :

لأن (أبا لهب) لم يمت ... وكل الذي مات ضوء اللهب

فقام الدخانُ مكانَ الضياءِ ... له ألف راسٍ وألفا ذنب

فالذي مات هو ضياء لهب أبي لهب ، وأما أبو لهب نفسه : فهو موجود ، لكن بلا

ضياء لهبه ، بل بدخان لهبه المنطفئ ، الذي انتشر له ألف راسٍ وألفا ذنب ، ليغطي بسواده الضياء !!

ويقول في قصيدة أخرى في بيان ألم الواقع من خلال هذه المقابلة:

يمانيّون في المنفى ... ومنفيّون في اليمنِ

وفي قصيدة (المغني تحت السكاكين) يصور فيها معاناة الشاعر بين الأمل والواقع بين الهمة والنكسة بين السعي للنصر والتقهقر للهزيمة ، يقول في بيتين منها تخاطب فيها نفسُ الشاعر نفسَه :

أيا شمعة العمر ذوبي ..يُلحُّ .... فتسخو وتومي : أأبدو شحيحة ؟!

فيولد في قلبه كل يوم .... ويحمل في شفتيه ضريحه

إلى أن يقول :

يُعرّي فضائحَ هذا الزمان ... ويَعْرَى ، فيبدو كأنقى فضيحة

ترى وجهَها الشمسُ فيه كما ... ترى وجهَها في المرايا المليحة

ومن مميزات الشاعر عصرية لغته ، وعدم انحسار اختياره بموازين الجزالة اللفظية القديمة .

ومن أمثلة ذلك : استعماله التعابير العصرية ، ففي قصيدة (بعد سقوط المكياج) يتكلم عن مدعي الوطنية ، فلما فاز بالمنصب صار واطيا لا وطنيا :

كنتَ حسب الطقس تبدو ثائرا ... صرتَ شيئًا .. ما اسمه ؟ يا للخجلْ

فـ(حسب الطقس) جاء تعبيرا في محلّه البديع هنا .

ويقول في بيت آخر :

يقولون من شكل الفوارس شكله ... نعم .. ليس (تكسيا) لمن قاد واكترى

ثم تكلم الشاعر في هذه القصيدة عن أمنياته بأن يكون مخطئًا في حكمه على هذا الوطني الواطي ، ليجلّي حالة غريبة يكون فيها تكذيبك نفسك أحب إليك من تصديقك

إياها!

إنما أرجوك : غلّطني ولو ... مرةً كن آدميا .. لا أقلْ

قل أنا الكذاب ، وامنحني على ... حِسّك الإنساني الشعبي مثلْ

فقد جادلت نفسي باحثا ... عن مزاياك فأعياني الجدلْ

أنت لا تقبل جهلي إنما ... ليس عندي للخيانات غزل

ومن أشهر قصائده على الإطلاق قصيدة (أبو تمام وعروبة اليوم) ، وهي القصيدة التي انتقلت بالبردوني من اليمنية إلى العالم العربي كله ، فبها عرفه العرب . وقد ألقاها في مهرجان أبي تمام الذي عُقد في الموصل بالعراق سنة ١٣٩١هـ ١٩٧١م ، وبعدها عُرف البردوني في أوساط الأدباء العرب وطار صيته في الآفاق .

ولشهرة القصيدة لن أذكرها في هذا التعليق الذي أحرص فيه على الاختصار ؛ وإلا فهي من دلائل فحولته الشعرية .

ومثلها في الشهرة قصيدته (الغزو من الداخل) ، وهي قصيدة يتكرر صداها بصوت البردوني نفسه في موقع سوق (اليوتيوب) حتى اليوم !

ومن قصائده المختارة قصيدة بعنوان (الأخضر المغمور) ، أحيل إليها اختصارا .

ومثلها قصيدة (الوجه السبئي وبزوغه الجديد) .

ومن مختار شعره قصيدة بعنوان ليلة خائف ، فيها من الإبداع في تصوير مشاعر الخوف وتزاحم الأفكار في نفس الخائف ما يشهد للشاعر بالفحولة :

يقول فيها :

كانت قناديل المدينهْ ... كالشرايين ، النوازفْ

والجو يلهث كالمداخن ... فوق أكتاف العواصف

وهناك مذعور ، بلا ... حانٍ ، على الأشواك عاكف

كالطائر المجروح ، في ... عُشٍّ ، بأيدي الريح واجف

السّقف ينذره ، ويصمت ... أو يوسوس ، كالزّواحف

والظلّ ، يلمحه ، وفي .. . عينيه تحترق الهواتف

والباب يلغط بالوعيد ... وينتقي أعقَّ الرّواجف

ماذا هناك ؟ وراءه ... شيءٌ كلعلعة القذائف !

فأحسّ أفواج (التتار) ... طوائفا تتلو طوائف

ورأى النوافذ أعينا ... كالجمر مطفأة العواطف

أين المفرّ ؟ وهمّ ، واسْتأنى ... وأحجم ، نصفَ تالف

فيفرّ ، وهو مسمَّرٌ ... والبيت يهرب وهو واقف

ومضت نجوم مطفآتٌ ... وانثنت أخرى كواسف

فروت إليه الريح ، خفـــــقةَ مِعزَفٍ ونحيب عازف

وعلى اختناق لُهاثه ... ضحَّى بصوت غير آسف

وهنا تحدّى الرعب ، أو ... داراه ، أو أَلِفَ المخاوف

فهمى على عينيه إغـــــفاءٌ كأسحار المصائف

وتبنّت الأحلامُ هجــــعته وبدّلت المواقف

فانهار قطّاعُ الطريـــــــق وأسكت الجوُّ العواصف

ورأى فراديسا تُدلِّـــــــله تمدّ له المقاطف

وبرغمه ، عصف التيقـــــظ بالعُلالات الخواطف

فأفاق ، رُبعَ مخدّر ... ثلثي صريعٍ ، نصفَ خائف

ومن جوامع أبياته في هذه القصيدة بيتان :

الأول قوله :

أين المفرّ ؟ وهمّ ، واسْتأنى ... وأحجم ، نصفَ تالف

والثاني هو قوله :

وهنا تحدّى الرعب ، أو ... داراه ، أو أَلِفَ المخاوف

ثم تأتي خاتمة القصيدة لتبين حال من استيقظ من كابوس مفزع ، حيث يقول :

فأفاق ، رُبعَ مخدّر ... ثلثي صريعٍ ، نصفَ خائف

ومن قصائده التي يحكي فيها الصراع النفسي الشهواني قصيدة (بين أختين) يحكي فيها شهوة عارمة وقعت في نفس رجل تجاه أخت زوجه ، أحيل إلى ديوانه لقراءتها خشية الإطالة والإملال .

وله عقبها قصيدة من نوع خاص من الغزل ، بعنوان (سوف تذكرين) ، يقول فيها :

ذات يوم ستذكرين ارتجافي ... بين كفيك وانهيال اعترافي

وسؤالي : من ذا هنا ؟ وارتياعي ... من سؤالي ، وخشيتي أن تخافي

واقترابي حتى شممتِ وُعودي ... بأسى جَيْئَتِي وهُزْءِ انصرافي

وورائي ذكرى تعضُّ يديها ... وأمامي طيفٌ كوحشٍ خرافي

من رآني من أين جئت وأمضي ... كالصدا ، كاغتراب ريح الفيافي

أي جذلى رجعتُ عنها .. ومنها ... وإليها جنازتي وزفافي

والذي كان منزلي قبل حينٍ جثتُه فاستحال منفى المنافي

***

إنما سوف تذكرين وقوفي ... بين كفيك أجتدي أو أصافي

ذات يوم سترحمين احتراقي ... بعدما ذبت واعتصرت جفافي

وتقولين كان عصفور حب ... ظامئا كيف عزَّ عنه ارتشافي

كان يأتي والجوع يشوي يديه ... وعلى وجهه اصفرار القوافي

واختلاجاته تسلّي غروري ... وانكساراته تحت انعطافي

كان يقتاده عبيري فيدنو ... ثم يثنيه ضعفه عن قطافي

***

وتعودين تذكرين التماسي ... ورجوعي ، وكيف كنتُ أوافي

وتودين لو بذلتِ ، ولكن ... عند أن تُجدبي ، وأرضَى عفافي

وفي هذه القصيدة الكثير مما يستحق الوقوف عنده :

- من ذلك قوله :

واقترابي حتى شممتِ وُعودي ... بأسى جَيْئَتِي وهُزْءِ انصرافي

حيث يظهر هنا أثر عمى الشاعر ، حيث هرب من تصوير حالته بأمر مرئي ، إلى أن جعله أمرا مشموما ! فجعل وعوده المتكررة وأسايا جيئاته وسخريات انصرافه بلا نوال ريحا تشتمها المحبوبة تدل على مقدار الذل الذي ناله من هذا الحب !!

- ثم يقول :

وورائي ذكرى تعضُّ يديها ... وأمامي طيفٌ كوحشٍ خرافي

وهنا يصور ندمه بأنه هو ذكرى خيباته المتكررة ، فجعل الذكرى هي من تعض يديها ، إمعانا في بيان تمازجها مع الندامة ، حتى لو تمثلت الندامة شخصا لكانت تلك الذكرى التي تعض على يديها .

ولئن كانت وراءه ذكرى الندامة ، فماذا يا تُرى يكون أمامه ؟! أمامه طيف :

• إما أنه كنى به عن المحبوبة ، وقد يشير إلى عدم قدرته على الرؤية ، فهو يصورها في نفسه طيفا ، ويكون قوله «كوحش خرافي» : إما أنه يقصد بالوحش الظباء غير المستأنسة ، وهو استعمال عربي فصيح : فليس الوحش في اللغة مقتصرا على المفزع من المخلوقات ، بل هو كل ما ليس بمستأنس ، ويقصد بـ(خرافي) : أن جماله أرقى وأسمى من جنس جمال البشر .

• وإما أنه كنى عن حاله إذا وقف أمامها بأنها طيف مخيف كالوحش الخرافي ، فهو موقف هيبة الجمال التي تجعل التخوف من تكرار صدها عنه طيفا من ذلك الوحش .

• وإما أنه كنى به عما ينتظره من موعد لقائه الآتي بها ، وعن شدة تخوفه من فشل ذلك

اللقاء المستقبلي ، كما فشلت لقاءاته الماضية . فهو بين ذكرى نادمة ، ومستقبل تلوح فيه ملامح الفشل المفزع كطيف وحش لا يعرف الناس له مثيلا !

- ثم يقول :

أي جذلى رجعتُ عنها .. ومنها ... وإليها جنازتي وزفافي

والذي كان منزلي قبل حينٍ جثتُه فاستحال منفى المنافي

فانظر كيف جعل نفسه تائها يدور في فلكها (عنها) و(منها) و(إليها) ، وأنها حياته وموته وسعادته وشقاوته ، فهي : جنازته وزفافه .

وتنبه لتطوّع القوافي على لسانه ، وكيف جاءت كلمة (زفافي) في موطنها الدقيق ، لا فضلة ، ولا تكملة لضرورة القافية !

وانظر كيف جعل مشاعر من رجع إلى بيته كسيف البال من صدّ المحبوبة مشاعر المغترب .. حتى في بيته ، بل هي مشاعر المنفي عن وطنه .. وليس المغترب طواعية ، بل هو أشد المنافي اغترابا ووحشةً وقهرا ! هذا كله .. وهو في بيته !! إنه الشعور العميق بفقدان الروح وتضييع النفس في زاوية من زوايا الحب البعيدة المنال !!

إنها قصيدة إبداعية ، تستحق الوقوف عند كل بيت منها .

ومن قصائده القَبّانية في الفسق : نسبة إلى نزار قباني (وقد أجللت نزار بن معدّ بن عدنان – جد العرب العدنانية - أن ألقبها بالنزارية) ، لكن فيها إبداع أدبي : قصيدة بعنوان (حلوة الأمس) ، ولا تغركم رقة العنوان ، فهي غليظة المضمون قاسية المشاعر ، يقول فيها:

أي شوق إليك أي اندفاعهْ ... فلماذا استحال جُوعي قناعه

لم تكوني شهية الدفء لو لم ... ترتعش في دمي إليك المجاعه

كنتِ يا حلوتي أَظَنَّ اشتهائي ... بعد أن تبذلي ، يزيد فظاعه

غير أنيَ طينٌ يَثِجُّ ، وتُطفي ... نارَه تفلةٌ تُسمّى اضطجاعه

***

قد تقولين سوف أنأى ويظمى ... ثم يأتي وتجتدي في ضراعه

ربما أشتهيك عاما وأنهي ... شوق عامين في مدى ربع ساعة

(حلوةالأمس) ما تزالين أحلى ... إنما في تصوراتي الشناعه

ما اختتمنا تمثيل دور بدأنا ... منه فصلا ، لكن فقدنا البراعه

***

هل تخيفينني بإسعاد غيري   صدقيني اذا ادعيتُ المناعه

فلْتَخُصِّي بما لديك فلانا ... أو فلانا ، أو فلتكوني مشاعه

وله قصيدة منظومة من درر الأبيات ، بعنوان (نحن أعداؤنا) ، وما أصدقها على واقعنا اليوم ، وعلى استعجال الشعوب ثورة لاسترجاع الكرامة ، في حين أن الكرامة لما تجر في عروقها بعد !

يقول في مطلعها هذه الأبيات :

لأنا رضعنا حليب الخنوع ... تقمصنا من صبانا الخضوع

فَجُعْنا ليكتظّ جلادنا ... ويطغى ، وننسى بأنا نجوع

وحين شعرنا بنهش الذئا ... ب ، شددنا على الجرح نار الدموع

ورحنا نجيد سباب الدجى ...   ولم ندر كيف نضيء الشموع

نفور وتطفئنا تفلةٌ ... فنمتص إطفاءنا في خشوع

ولما سمعنا انفجار الشعوب ... أفقنا نرى الفجر قبل طلوع

ويوما ذكرنا بأنا أناس ... فثرنا ومتنا لتحيا الجموع

ولكن لبسنا رداء الأباة ... وفي دمنا المستظام الهلوع

فحين انتوينا شروعَ المسير ... حَذِرنا المغباتِ قبل الشروع

وقلنا أتى من وراء الحدود ... جراد غريب فأشقى الربوع

وليس عدانا وراء الحدود ... ولكن عدانا وراء الضلوع

فقد جَلت الريحُ ذاك الجراد ... فكنا جرادا وكنا الزروع

وله أبيات يسخر فيها من عدالة الغرب ومساواته ، يقول فيها :

تصوّروا ، يوم اعتدا جيرتي ... أنعلتُ وجهي خيلَ حُسن الجوارْ

أهوى التساوي ، قاطعا كلّ من ... يبدو طويلا ، كي يساوي القصارْ

يوم اشتكت قمعَ الخِمار ابنتي ... أنصفت ، ألبستُ البنين الخِمار

وفي هذه القصيدة يقول ساخرا :

حوافر المحتلّ في شاربي ... لكنني أشبعت منه الدمارْ

لأنني جزّأتُه : نصفه ... سيفي ، ونصفٌ داخلي مستشارْ

وفيها بيت من الأمثال يقول فيه :

الموسمُ الوهميُّ لأغبى المنى ... يُعطي قُبيل الحرث وَهْمَ الثمارْ

ومن إبداعاته في تجاوز الصور المرئية إلى بقية الحواس غير حاسة البصر :

قوله عن الجوانب المظلمة في سنوات تاريخنا المتتالية في قصيدة من مختار شعره ، أشدد على أهمية قراءتها ، وما تركتها إلا اختصارا ، وهي (حكاية السنين) :

تمشي الفصول كما يخشخش ... في يد الريح الهشيمُ

فهنا بدأ المشهد بمشهد مرئي ، وهو مشهد فصول السنة وهي تمشي ، ثم ختم المشهد بمشهد مسموع ، وهو خشخشة الهشيم في يد الريح ، مع ما في هذا المشهد المعبر من دلالات على تلاعب الهلاك بالجسد المتفتت للفصول ، فهي لا تمشي ، بل تنسحب في جفاف وهشاشة في يد الريح .

وفي قصيدة حوارية بينه وبين غانية ، يبدع الشاعر في بيان علاقة اللمس (بدلا من البصر) في إذكاء أحاسيسه ، فيقول :

مثلما يبتدىء البيت المقفَّى ... رحلة غيميّة تبدو وتخفى

مثلما يلمس منقارُ السَّنَى ... سحرا أرعشَ عينيه وأغفى

هكذا أحْسُو يديك إصبعا ... إصبعا ، أطمع لو جاوزن ألفا

مثل عنقودين أعيا المجتني ... أيّ حبّاتها أحلى وأصفى

هذه أملى ، وأطرَى أختُها ... تلك أشهى ، هذه للقلب أشفى

هذه أخصب نضجا إنني ... ضعت بين العشر لا أملك وصفا

***

حلوة تغري بأحلى ، كلها ... هتفت : كُلني وصدّتْ وهي لَـهْفَى

تلك أصبى ، تلك أنقى إنما ... لم أفكر أن في البستان أجفى

***

(أنت من أين ؟) كنبظَيْ وترٍ ... ودنت شيئا ، أنا من كلّ منفى

صمتت بعد سؤال قرأتْ .. من صداه قصّتي حرفا فحرفا

فانظر البيت الثالث وما بعده ، كيف غاب الشاعر في أحاسيس اللمس ، وتمنى لو كانت أنامل غانيته ألفا ، مع أنه ضاع بين عشر أنامل فقط !!

ثم يعبر عن ألمه بواقعه اليمني عندما يختم القصيدة بسؤال الغانية له عن موطنه (أنت من أين ؟) ، فيجيبها : (أنا من كل منفى) ، يشير إلى غُربة اليمنيين في البلدان ، بل إلى غربتهم في بلدهم (حسب رأي الشاعر) .

ومن حين أن عرفت الغانية أنه يمني ، عرفت قصته من ألفها إلى يائها !!

وربما عكس الشاعر الأمر فجعل الأصوات صورة مرئية ، وأبدع في ذلك ، رغم عماه !

ومن ذلك قوله حاكيا حسناء خجلت من ثنائه عليها :

وتناعست النبراتُ على ... شفتيها كالفجر النعسانْ

فهنا جعل صوتها الخفيض خجلا ناعسا ، والنعاس من صفات العيون لا من صفات الأصوات . فجاء هذا التعبير جميلا ورقيقا ومعبرا عن الصوت الخجول ، ويستبطن في المخيلة الأدبية جمال الأعين النواعس الذوابل التي ذاب في حسنها الشعراء !

ومن جميل تشبيهاته :

يذكر من أراق ماء وجهه ومسح بكرامته الأرض من أجل قرش يأخذه من حاكم ظالم ، فيقول في تشبيهه :

وجهٌ كأقدم درهم ... لم يُبقِ فيه المسحُ نقشا

ما أبدع هذا التشبيه ! بدءا باختيار الدرهم ؛ لأن المشبَّه عبدُ الدرهم ؛ لأنه باع نفسه بدرهم ؛ لأنه جعلنا لا ننظر إليه إنسانا بكرامة الإنسان ، بل جعلنا نراه درهما جامدا بلا روح ، بل بلا كرامة ، فالميت له كرامة .. وهو ميت ، أما الدرهم فقد باعت به المومس عرضها ، واشترى به الفاجر خمر فجوره ، ووقع في يد التقي ، فلم يحزن أن انتقل إلى يد البغي .

ولم ينته التشبيه الغريب عند تشبيه وجه شحاذ أبواب السلاطين بالدرهم ، بل هو درهم لا ملامح له ولا قسمات ، هو ممسوح المعالم ، من كثرة ما مر بأيدي عبيد الدراهم ومن كثرة ما مسحته الأنفس الشحيحة قبل إخراجه من بين قبضة أصابعها ! إنه درهم بلغ من القذارة وانعدام المعنى : أنه لم تعد عليه ملامح شيء ، ولا حتى ملامح درهم !

ومن تعبيراته البليغة في تحسين القبيح : قوله على لسان حارس ملك سفاح ، ثار عليه شعبه ، فخشي الحارس من الثوار ، فأراد الانقلاب على الملك ، فقال لهم :

إنني سيف لمن يحملني ... خادمُ الأسياد ، كلَّ الأزمنهْ

كنت في كَفّي (أبي جهل) كما ... كنت في تلك الأكفّ المؤمنهْ

في فمي أرجوزة (هند) كما ... في فمي (الأعراف)و(الممتحنَهْ)

ويقصد بأرجوزة هند : أرجوزة هند بنت عتبة العبشمية يوم أُحد تحرض المشركين على قتال المسلمين :

نحن بنات طارق

نمشي على النمارق

إن تُقبلوا نعانق

ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق

ومما يعيب الشاعر غلوه اليمني ، حتى بلغ به الأمر أن يحكي حسرته على انفراد أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) بالخلافة ، ويحكي قصة سقيفة بني ساعدة على أن الأنصار أضاعوا فيها مجد اليمن ، فيقول :

يا قريش اذكري نمتنا جميعا ... صحبةٌ سمحة وقربى أثيرهْ

فلك السبق والجبين المحلّى ... وأنا الجبهة الشموخُ النصيره

أنت أمّارة ... أنا .. ثم قالوا : ... سكتت قبل أن تقول : وزيره

دهشةُ البدءِ ضيّعت من خُطاها ... أوّلَ الدرب وهي حَيرى حسيره

وجهها غاص في غبار المرايا ... واسمها ضاع في الأماسي الغفيره

أين (سعد) قالوا : رماه عشاءً ... ماردٌ من (قُبا) يسمى (بجيره)

وحكوا : أنها استعارت وجوها خبأت تحتها الوجوه الكسيره

ومما يعيبه استعماله للفظ القبيح البذيء ، وليس هذا كثيرا ، كقوله :

صار أغنى ، صرنا نرى باحتقار ... ثروة المعتدي كسروال قحبة

فهنا لجأ الشاعر إلى هذا التعبير المستقبح ، ومع كونه معبرا عما يريد ، لكن كان يمكنه تنزيه ذائقة السامعين عن هذا التعبير الفِج (بكسر الفاء ، أما بفتحها فهي الطريق الواسع) .

ولئن كان هذا بعض ما يؤخذ على الشاعر ؛ فإن من أبياته ما بلغ من جمال اللفظ والمعنى وبلوغه حد السهل الممتنع ما يؤهلها لتكون أمثالا سائرة (وهي كثيرة) ، ومن ذلك غير ما مر في بعض منتخبات شعره :

قوله عن تناقضات جيل لا يعرف كيف يبني من ثورته على المستبدين حياةً بناءة مستقرة (وكأنه يتكلم عن حوادثنا اليوم) :

جيلٌ يوثِّق بين مصرعه و محياه العلاقه

ويريق آلاف الكؤوس أسًى على الكأس المراقه

وقوله عمن لا يعرف إذا عادى كيف يعادي ، وكيف ينتصر على عدوه انتصارا حقيقيا :

من لا تُعلِّمه العداوة ... فهو أجهل بالصداقه

ومن هذه الأبيات قوله في قصيدة (أبو تمام وعروبة اليوم) :

أدهى من الجهل علمٌ يطمئن إلى ... أنصاف ناسٍ طغوا بالعلم واغتصبوا

وفيها يقول أيضا :

تنسى الرؤوسُ العوالي نارَ نخوتها ... إذا امتطاها إلى أسياده الذنبُ

وفيها يقول عن تسارع الشيب في رأسه :

كذا إذا ابيضّ إيناعُ الحياة على ... وجه الأديب أضاء الفكرُ والأدبُ

ومن قصيدة أخرى يقول في عجز بيت :

إن أقوى الرياح ريحُ القذارهْ !!

ويقول عن كثرة الخونة في بلادنا ذاكرا وزير الدفاع الإسرائيلي في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات الميلادية (موشي ديان) :

(مُوشي) ما عاد هناك ، هنا ... وهنا ألفا (موشي ديانْ)

وفي قصيدة أخرى يذكر أن الشعب لا يذل إلا إذا كان ذليلا ، فيقول :

قل : لم نترك وثنًا لكن ... في أنفسنا أصل الأوثانْ

ما أضعفنا شيءٌ إلا ... ما فينا من طين الإذعان

ويقول في مطلع قصيدة (الغزو من الداخل) :

فظيعٌ جهلُ ما يجري ... وأفظع منه أن تدري

ويقول في ترك الإقدام بحجة التعقل :

أوَليس فلسفة الهزيمةِ ... أن أموت تعقُّليّهْ ؟

وهل العمالة حكمةٌ ... وهل الشجاعة موسميةْ ؟

وفي قصيدة أخرى يذكر أن إسقاط الطاغية لا يفيد إذا بقي النظام الذي يصنع الطغاة ، فيقول :

أيُّ نفع يجتني الشعبُ إذا ... مات (فرعونُ) لتبقى فرعنهْ

ومن مطالع قصائده الملهمة قوله :

يا شعرُ .. يا تاريخُ .. يا فلسفهْ *** من أين يأتي قلقُ المعرفهْ

ومن أبياته البديعة في التعبير عن حال من ضيع الفرصة في وقتها ، وأراد تحصيلها بعد ذهاب الفرصة . أو حال من سكت في موطن الكلام ، فلما غاب عن موطنه صار الكلام كلا كلام :

مثل أفكارٍ أضاعت فمها ... وتلاقيه ، فتنسى أن تعبّرْ

(قال ابن أبي حاتم) : وهنا سكت الشيخ ، وغرق في صمت طويل ، وكأنما خشي أن تضيع الأفكار من فمه . فعلمت أنه قد انقطع حديثه ، وأن ما حزته من كلامه كان قدرا كافيا في التعريف بالبردوني (رحمه الله) .

الحلقةُ العشرون من سؤالات ابن أبي حاتم العوني عن فحولة الشعراء المحدَثين :

(قال ابن أبي حاتم) : فلما أطال الشيخُ في البردوني شاعر اليمن في العصر الحديث ، سألته عن شاعر تردد ذكره في شعر البردوني ، وهو الزبيري .

فقلت للشيخ : من هو الزبيري الشاعر الذي كرر ذكره البردوني في أشعاره ؟

فقال : هو محمد بن محمود الزُّبيري ، بضم الزاي وفتح الباء ، توفي مقتولا سنة (١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م) ، وهو الملقب عند الثوار على حكم الإمام في اليمن بـ(أبي الأحرار) وبـ(شاعر الثورة) .

فقلت للشيخ : فهل هو فحل ؟

فقال الشيخ : لا ، ليس فحلا في شعره ، وإن كان فحلا في الصدق مع مبادئه والوفاء لها.

فقلت للشيخ : وما مكانته الكبيرة لدى كثير من اليمنيين ؟!

فقال : هو وإن لم يكن فحلا ، لكن له شعر جيد ، يُدخله في الشعراء ، لكنه لا يدخله في الفحول .

ثم مكانته الكبيرة والقيادية في الثورة وفي تأجيجها ، وصدقُه مع مبادئها ، وموته مقتولا بسبيلها ، وانتصار الثورة على الإمام في النهاية ، وانتهاء صوت المدافعين عن الإمامة في اليمن ، وعلو صوت خصومها = كل ذلكم جعل المبالغة في الثناء عليه في شاعريته نتيجة محتومة ، خاصة في عالمنا العربي : الذي يخلط بين التقييم العلمي والتقييم العاطفي ، ويخلط بين مجالات التقييم : فمن كان له مجال واسع في شأن من شؤون الأمة ، فلابد أن يكون فارس كل مجال !

ثم إن الزبيري منسوب إلى جماعة الإخوان المسلمين ، وللجماعة في تفخيم أتباعها والغلو فيهم وفي القدرة على التسويق لذلك ما لا ينكره أي متابع ، وهو من البدهيات الحزبية أصلا عند الأحزاب الإسلامية .

(قال ابن أبي حاتم) وهنا أحببت أن أعرف كيف قال الشيخ (تقييم) ولم يقل (تقويم) ، مع أن القياس يوجب أن تكون بالواو ؛ لأنها من الفعل (قوَّمَ) بالواو .

فقلت للشيخ : كيف قال الشيخ : قيّم تقييما ؟

فقال الشيخ : نعم ، هذه لغتي ، ألا ترى العرب اشتقت من فعل واحد مصدرين ففرقت بينهما بالواو والياء ، كما في عاد يعود ، قالوا في مصدره : عودًا إذا كان من مطلق المعاودة ، وقولوا في مصدره : عيدًا ، إذا كان من اليوم الذي يُجعل كل عام للاحتفال . وكان الأصل والقياس أن يكون في الحالين بالواو ، وكان يجب أن نجمع العيد على أعواد ، لا على أعياد ، وكان يجب أن نصغره على عُويد ، لا على عُييد .

والعرب إنما فعلت ذلك للتفريق في الدلالة بين اللفظتين ، وهكذا نفعل في التقييم .

فقلت للشيخ : لكن ما ذكرته في العيد مسموع عن العرب ، وأما في التقييم فلم يذكره أحد من أئمة اللغة ؟!

فقال الشيخ : ومن قال لك أني أتبع مدرسة البصرة في النحو ؟! إني يا بُني أميل إلى التسهيل المنضبط في اللغة ، ولست من هواة التشديد على نفسي وعلى غيري .

ثم ألم تسمعني أقول لك (تقييم) ؟! ألا ترى لغتي حجة ؟!!!

فقلت : بلى ...

فقطع عليّ كلمتي قائلا : فعلام سؤالك ؟!

فقلت : جاهل متعلم ، وغبي قرينُ حمق ، وأعمى أضاع النهج السوي ...!!!

وأردت أن أكمل شتم نفسي عسى أن أكف من غضبه ، فهو ما علمت غضوب المراجعة ، كأنما تُسعطه (تُنشقه) بها حب الفلفل ، ما يزال يعطس بالتسفيه في وجهي ، فما أن ينتهي

من عطسة تسفيه حتى يتبعها بعطسة تحقير ، فلا أخرج من عنده إلا ماسحا وجهي بمنديل الذل الذي نلته بسبب مراجعتي !!

لكنه قال لي : نعم أحسنت .. جاهل متعلم ، وغبي قرينُ حمق ، وأعمى أضاع النهج السوي .

(قال ابن أبي حاتم) : فبادرت بالسؤال ، وكأن شيئا لم يكن ، فلو رأى في وجهي احمرار حزن أو اسوداد ذل لكنت شرَّ طريدٍ ذلك اليوم !

فقلت له : وما تستحسن من شعر الزبيري ؟

فقال : له أبيات مفرقة تنبئ عن معدن عربي أصيل ، مطبوعة ، خرجت على سجية ، بلا صنعة تكلّف ، ولا تزويق طول الفكرة . فأسعفته تلك السجية العربية في صدور الشعر منه كشعر الأعراب : ناصع اللفظ المعنى ، لكنه ليس مرصّعا بزينة الصنعة ، ولا يبلغ درجة الفحولة .

(قال ابن أبي حاتم) فأردت أن أسأله : ما الذي يمنع ذا السجية من بلوغ الفحولة ؟ لكني خشيت من بوادر غضبه ، فسكت !

وقلت له : هيهٍ ؟ (هيهِ وإيه : بغير تنوين ، إذا استزدته من الحديث المعهود بينكما ، فإن نوّنت : استزدته من حديث ما غير معهود) .

فقال : يعجبني له قوله عقب خروجه من المعتقل :

خرجنا من السجن شم الأنوفْ ... كما تخرج الأُسد من غابها

نمرّ على شفرات السـيوف ... ونأتي المنيــة من بابها

ونأبى الحياة إذا دُنِّســت ... بعسف الطغاة وإرهابهــا

وقوله :

ناديتُ أشتات الجراح بأمتي ... وجمعتها في أضلعي وطبعتُها

ما قال قومي : آهِ ؛ إلا جِئتُني ... فكويت أحشائي بها ولسعتها

وقوله :

تعس الدمع إذا لم ... يستطع فكَّ سراحي

البكا أعجز ما استخدمت في كسب النجاح

وقوله في قصيدته الشهيرة (صيحة البعث) :

إن القيود التي كانت علي قدمي ... صارت سهامًا من السجان تنتقمُ

إن الأنين الذي كنا نردده ... سرًّا غدا صيحة تُصغي لها الأممُ

والحق يبدأ في آهات مكتئب ... وينتهي بزئير مِلؤُه نِقَمُ

ومن مشهور شعره قصيدة (رثاء شعب) ، التي مطلعها :

ما كنتُ أحسِبُ أني سوفَ أبكيهِ ... وأنّ شِعْري إلى الدنيا سينعيهِ

وأنني سوف أبقى بعد نكبتهِ ... حيّا أُمزّق روحي في مراثيهِ

وأنّ من كنتُ أرجوهم لنجدتهِ ... يومَ الكريهةِ كانوا من أعاديهِ

ألقى بأبطاله في شرّ مهلكةٍ ... لأنهم حقّقوا أغلى أمانيهِ

وفيها يقول في رثاء شعبه :

وليس لي بعده عُمْرٌ وإن بقيتْ ... أنفاسُ روحي تُفَدِّيه وترثيهِ

فلستُ أسكُنُ إلا في مقابرهِ ... ولستُ أقتاتُ إلا من مآسيهِ

وما أنا منهُ إلا زفرةٌ بقيتْ ... تهيم بين رُفاتٍ من بواقيهِ